الملتقى الدولي والموسوم بـ :
"المدخل السياقي للحديث النبوي الشريف: أسسه النظرية،
وتطبيقاته عند أعلام الجزائر وتونس"
يومي 26-27 نوفمبر 2024 ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة
وجامعة الزيتونة-تونس

أثر السياق الزماني والمكاني على توظيف الحديث النبوي الشريف عند ابن باديس واستثماره له

أ.د. عبد الرحمن خلفة
كلية الشريعة والاقتصاد جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
البريد الالكتروني: ar-khelfa@hotmail.fr

ملخص

تعالج هذه المداخلة موضوع "أثر السياق الزماني والمكاني على توظيف الحديث النبوي الشريف عند ابن باديس واستثماره له" متوخية الإجابة عن إشكالية رئيسة تدور حول سؤال جوهري فحواه كيف أثّر سياق الحال مكانا وزمانا في توظيف ابن باديس للحديث النبوي الشريف وما مظاهر هذا التوظيف؟ متوسلا لذلك بمنهجي الاستقراء والتحليل، للمدوّنة الحديثية التي تصدى ابن باديس لشرحها وبيان معانيها واستنباط أحكامها وفوائدها، مستهدفا بيان بعض جوانب الإصلاح الديني والاجتماعي للإمام ابن باديس التي جعل من نصوص الشريعة منطلقا لها، وبيان مدى فقه الإمام لواقعه المعيش وتعاطيه الإيجابي مع قضايا عصره وأمّته، وقوّة منهجه في التحليل والاستنباط والاستشراف، وحكمته في التكيّف مع إكراهات التاريخ، وحسن توصيف الواقع ودقّة توظيف النص النبوي في معالجة ما بدا له في ذاك الواقع من انحرافات دينية واجتماعية؛ وستكون معالجة الموضوع عبر مبحث تمهيدي ومبحثين رئيسيين؛ حيث نجعل المبحث التمهيدي مدخلا لبيان أهمية السيّاق عند علماء الشريعة في فهم معنى النص الديني وتنزيله، بينما نخصص المبحث الأول لبيان أثر سياق الأحوال الدينية على توظيف ابن باديس للحديث النبوي الشريف ومظاهر هذا التوظيف، ونخصص المبحث الثاني لبيان أثر سياق الأحوال التربوية والاجتماعية على توظيف ابن باديس للحديث النبوي الشريف ومظاهر هذا التوظيف، قبل أن نختم المداخلة بخاتمة نضمّنها نتائج البحث.

الكلمات المفتاحية: الحديث النبوي، السياق، المفهوم والتنزيل، الإصلاح، الواقع الجزائري

Summary

This intervention addresses the topic of 'The effect of the temporal and spatial context on the use and exploitation of the noble Prophetic hadith according to Ibn Badis' Aiming to answer a major problem that revolves around a fundamental question: How did the context of the situation, place and time, affect Ibn Badis' use of the noble Prophet's hadith, and what are the manifestations of this use? Relying on the methods of induction and analysis, to the hadith blog that Ibn Badis addressed to explain it, explain its meanings, and derive its rulings and benefits, Aiming to explain some aspects of the religious and social reform of Imam Ibn Badis, for which he made the texts of Sharia a starting point, and to show the extent of the Imam's jurisprudence in relation to his living reality and his positive dealing with the issues of his time and nation, the strength of his approach in analysis, deduction and foresight, his wisdom in adapting to the constraints of history, the good description of reality and the accuracy of employing... The prophetic text in dealing with the religious and social deviations that appeared to him in That's

reality; The topic will be treated through an introductory section and two main sections: We make the introductory study an introduction to explaining the importance of context for Sharia scholars in understanding the meaning of the religious text and its revelation. While we devote the first section to explaining the impact of the context of religious conditions on Ibn Badis' use of the noble Prophet's hadith and the manifestations of its use. We devote the second section to explaining the impact of the context of educational and social conditions on Ibn Badis's use of the noble Prophetic hadith and the manifestations of its use. Before we conclude the intervention with a conclusion, we include the results of the research.
key words : Prophetic hadith. Context. Concept and download. Reform. Algerian reality.

مقدمة:

لقد حظي موضوع سياق النص الديني الإسلامي منذ القدم بعناية كبيرة من قبل علماء الشريعة الإسلامية بمختلف تخصصاتهم العلمية؛ لاسيما في علم الفقه وأصوله وعلوم القرآن والسنة، وعلوم التفسير وشرح الحديث، لما رأوا في العلم به من ضرورة لفهم النصوص الشرعية والوقوف على مراد الشارع الذي أنيط به الحكم الشرعي، من جهة، وتوسلهم به لحسن استنباط الأحكام الشرعية وتنزيلها على واقع الناس في التاريخ تنزيلا صحيحا، ليحققوا بها مقاصد الشريعة ويسلكوا بها سبل الإصلاح الذي كلف الرسل بأدائه، ولئن أكثر المتقدمون وبعض المتأخرين من سياق النص لحظة نزوله أو وورده، بما أعانهم على دقة الفهم وحسن الإدراك، فإن قلّةً منهم اشتغلت على سياق تنزيل النص في التاريخ ليواكب وقائع المكلفين به؛ لأن هذا الاشتغال يقوم به عادة المجددون والمصلحون في مراحل معينة من تاريخ الأمة المسلمة، وقد لاحظنا أن الإمام عبد الحميد بن باديس (1989م-1940م) يعد واحدا من هؤلاء المجددين المصلحين الذين أحسنوا توظيف النص الديني من قرآن وسنة في السياق المكاني والزماني الذي عاش فيه، لاسيما بالمجتمع الجزائري خلا ل الفترة الممتدة من 1913م إلى 1940م، وهي الفترة التي تفرغ فيها ابن باديس للتدريس والعمل الإعلامي والجمعوي، مستهدفا إحياء الدين في الواقع الجزائري وإصلاح حال الأمة الجزائرية الواقعة عصرئذ تحت الاحتلال الاستيطاني الفرنسي، بما تحمله هذه الحالة من آثار سلبية مدمّرة للقيّم والأخلاق ومحاصرة للدين ومشوهة له، وما تفرضه من تحديات فكرية ودينية وحضارية وسياسية، فكل من يطلع على دروسه في شرح الحديث النبوي الشريف يجد أنه أكثر المصلحين الجزائريين مراعاة لسياق تنزيل النص النبوي ضمن الإطار التاريخي الذي عاش فيه، بحمولته الدينية والاجتماعية والنفسية والسياسية والثقافية، دون أن يغفل عن التنبيه على سياق الحديث اللفظي، الذي كثيرا ما وظّفه لفهم المعنى، وترجيح معنى على آخر، أو حكم شرعي على آخر.

ومن خلال استقراء مدوّنة مجالس التذكير التي خلّفها ابن باديس نقف على ثلاثة عوامل شكلت له سياقات تاريخية من خارج النص النبوي لتوظيفه عند تلقيه وقراءته في ظلها؛ لوقاية الأمة الجزائرية من تأثيراتها وعلاجها من تداعياتها، وهي: الاستعمار الفرنسي وما بثّه في النّفوس من نفسية الانهزام التي دفعت المغلوب إلى تقليد الغالب وتمجيد حضارته، وازدراء مدنيّة أمته أو الغفلة عنها، وانحرافات بعض الطرق الصوفية التي بثّت أفكارا قدرية ومارست طقوسا يرى فيها ابن باديس ضربا من ضروب البدعة والشرك والسلبية المعيقة لكل إصلاح، والأمّية التي يعيشها الشعب الجزائري برمته؛ ذكورا وإناثا، صغرا وكبارا؛ لذلك لم يدّخر جهدا في أن يخصص كل مرة فقرة من فقرات درسه في شرح الحديث النبوي للتنبيه على خطر هذا الداء أو ذاك، ويكشف عن مكمن الخطر والانحراف فيه، قبل أن يرشد الجزائريين للطريق الأصلح لحفظ دينهم وسلامة عقيدتهم وصحة عبادتهم ووحدة أمتهم والاعتزاز بهويتهم، وعدم الانسلاخ عنها، و كل هذا يرجع فيه إلى دلالات الحديث وقراءاته المفتوحة له، وقد كان يختم شرحه للحديث بعناوين فرعية تكشف عن هذا التنزيل على غرار عناوين: 'إرشاد وترغيب' 'تنبيه وتحذير'، 'تطبيق'، 'علاج' ' توجيه'، 'تحذير أوكد'، 'اعتبار' ، 'تربية'، 'تبصرة'.

وفي ضوء ما سبق تأتي هذه المداخلة لتعالج الموضوع الموسوم ب 'أثر السياق الزماني والمكاني على توظيف الحديث النبوي الشريف عن ابن باديس واستثماره له' متوخية الإجابة عن إشكالية رئيسة تدور حول سؤال جوهري فحواه كيف أثّر سياق الحال مكانا وزمانا في توظيف ابن باديس للحديث النبوي الشريف وما مظاهر هذا التوظيف؟ متوسلا لذلك بمنهجي الاستقراء والتحليل، للمدونة الحديثية التي تصدى ابن باديس لشرحها وبيان معانيها واستنباط أحكامها وفوائدها، مستهدفا بيان بعض جوانب الإصلاح الديني والاجتماعي عند الإمام ابن باديس التي جعل من نصوص الشريعة منطلقا لها، وبيان مدى فقه الإمام لواقعه المعيش وتعاطيه الإيجابي مع قضايا عصره وأمته، وقوة منهجه في التحليل والاستنباط والاستشراف، وحكمته في التكيّف مع إكراهات التاريخ، وحسن توصيف الواقع ودقة توظيف النص النبوي في معالجة ما بدا له فيه من انحرافات دينية واجتماعية؛ وستكون معالجة الموضوع عبر مبحث تمهيدي ومبحثين رئيسيين؛ حيث نجعل المبحث التمهيدي مدخلا لبيان أهمية السياق عند علماء الشريعة في فهم معنى النص الديني وتنزيله، بينما نخصص المبحث الأول لبيان أثر سياق الأحوال الدينية على توظيف ابن باديس للحديث النبوي الشريف ومظاهر هذا التوظيف، ونخصص المبحث الثاني لبيان أثر سياق الأحوال التربوية والاجتماعية على توظيف ابن باديس للحديث النبوي الشريف ومظاهر هذا التوظيف، قبل أن نختم المداخلة بخاتمة نضمنها نتائج البحث وتوصياته، وذلك وفق ما يأتي:

المبحث التمهيدي: مدخل لبيان أهمية السياق عند علماء الشريعة في فهم معنى النص الديني وتنزيله

إن معرفة السياق الذي ورد فيه النص؛ سواء كان سياقا محيطا بالنص أو منضويا في صيغته، ضروري لفهم معنى النص والوقوف على مساحاته الدلالية؛ المحصورة منها والمفتوحة على المعاني المتعددة والقراءات المختلفة، وحسن حمله على المراد من الأحوال والشروط، وإن الغفلة عن السياق المتلبس بالنص أو المقترن به قد يفضي إلى سوء في الفهم وخطأ في المحمل؛ لذلك اعتنى الفقهاء المسلمون والمفسّرون وشراح الحديث منذ القدم بالبحث في سياقات ورود النصوص من الكتاب والسنة، فظهر في الدرس التفسيري والحديثي موضوعات ذات صلة بذلك على غرار: أسباب نزول الآيات، وأسباب ورود الأحاديث، كما ظهرت في علم أصول الفقه موضوعات القرائن المعنوية واللفظية الحافّة بالنص، ومدى تأثيرها في الفهم والاستنباط والتنزيل والترجيح، ومن لاحظّ له من هذه العلوم لن يتأتى له التصدي للاجتهاد والاستنباط، ولذلك عرفوها في هذا العلم بأنها 'ما يصاحب الدليل، فيبيّن المراد به، أو يقوّي دلالاته أو ثبوته'[1] وقيل هي: 'أمر بين ما أريد بالدليل الشرعي المحتمِل'[2] وذكروا أنها أربعة أنواع: قرينة شرعية؛ نصية واجتهادية وفقيه وقضائية، وقرينة عرفية، وقرينة عقلية، وقرينة حسية، وهذا التقسيم للقرينة اعتبر فيه مصدرها، أما تقسيمها باعتبار هيئتها فقد قسموها إلى قسمين: قرينة المقال أو القرينة اللفظية أو السمعية، وقرينة الحال أو القرينة المعنوية أو العقلية، وقسّموها من حيث قوة أثرها إلى قرينة قاطعة وقرينة ظنية، بينما قسّموها من حيث وظيفتها إلى قرينة مبيّنة وقرينة مقوّية، وقسّموها من حيث الظهور وعدمه إلى قرينة ظاهرة وقرينة خفية، وقسّموها من حيث الاستقلال وعدمه إلى قسمين: قرينة منفصلة وقرينة متصلة[3]

بيد أن هذه القرائن التي اشتغل عليها علماء أصول الفقه والمفسّرون وشراح الحديث انصبت على لحظة ميلاد النص وظروف نزوله، فهي بذلك مقترنة له ومحدودة زمانا ومكانا؛ فالنص لحظة نزوله أو وروده يحتاج إلى فهم ومحمل لأن التكليف يناط بهما، ولا ينبغي تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولم يترك العلماء نصا دون أن يكشفوا عن القرائن المحيطة بسياقه؛ سواء اتفقوا عليها أو اختلفوا حولها، وهذا النوع من السياق المقترن بلحظة ورود النص معين على الفهم، وفي ضوئه يفهم النص القرآني والحديث النبوي الشريف، ولا

---

[1]- المبارك، محمد بن عبد العزيز، القرائن عند الأصوليين، ط1، 1426هـ/20025م، سلسة الرسائل الجامعية (57)، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، 68/1.

[2]- الأسطل، محمد قاسم، القرينة عند الأصوليين (رسالة ماجيستير)، قسم أصول الفقه، كلية الشريعة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1425هـ/2004م، ص 14

[3]- راجع هذه التقسيمات في: المبارك، مرجع سابق، 99/1 وما بعدها، والأسطل، مرجع سابق، ص 18 وما بعدها.

يفهما خارجه؛ سواء بالحقيقة اللغوية الوضعية أو الحقيقة العرفية العامة المقترنة بنزول الوحي وورود الحديث، أو الحقيقة الشرعية الموحى بها والمبينة، ولذلك قال الشاطبي: (إنه لا بدّ في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين؛ وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يجوز العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن عرف فلا يصح أن يجرى في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جار في المعاني والألفاظ والأساليب)[4]، ويقول أيضا موضحا أهمية السياق في فهم النص القرآني والنبوي: (وَمِنْ ذَلِكَ مَعْرِفَةُ عَادَاتِ الْعَرَبِ فِي أَقْوَالِهَا وَأَفْعَالِهَا وَمَجَارِي أَحْوَالِهَا حَالَةَ التَّنْزِيلِ، وَإِنْ لم يكن ثم سبب خاص لا بد لِمَنْ أَرَادَ الْخَوْضَ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ مِنْهُ، وَإِلَّا وَقَعَ فِي الشُّبَهِ وَالْإِشْكَالَاتِ الَّتِي يُتَعَذَّرُ الْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَّا بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ.. وَقَدْ يُشَارِكُ الْقُرْآنَ فِي هَذَا الْمَعْنَى السُّنَّةُ، إِذْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَقَعَتْ عَلَى أَسْبَابٍ، وَلَا يَحْصُلُ فَهْمُهَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ)[5]. فعادات العرب سياقات أحاطت بالنص يوم تجليه نزولا أو ورودا.

وقد قام بعض الباحثين باستقراء معنى السياق عند علماء أصول الفقه وتوصل إلى أن المراد بهم عندهم منذ القديم:

- النصوص السابقة واللاحقة لما يراد بيانه أو تأويله، والنصوص البعيدة والسورة بأكملها.
- قصد الشارع الملحوظ في النص ذاته المراد بيانه أو تأويله، ومقاصد التشريع المبثوثة هنا وهناك في الأدلة الشرعية
- سبب نزول الآية وسبب وورود الحديث، وحال المخاطَبين زمن الرسالة وظروف القول.
- وبهذا اتضح له أن مصطلح السياق عند الأصوليين يشمل عناصر السياق المقالي والمقامي[6].

فالغرض من البحث فيه الكشف عن مراد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من كلامهما، وما يستهدفانه من مقاصد لتشريع الحكم المبثوث فيهما.

ويرى الباحث محمد الوافي أن السياق، وإن رأى البعض أنه غالبا ما يوصف بأنه مصطلح متمرد، يأبى التحديد، فإنه يعد مصطلحا جامعا لمعاني متحدة الأصول، متشعبة الفروع. حتى قيل فيه، إنه مجموع الوقائع، اللغوية، وغير اللغوية، المتصلة بالخطاب، والمنفصلة عنه، وإن تصنيف ذلك بحسب طبيعته في ذاته، أو بحسب زمن وروده، مرتبط بالوظيفة المنهجية التي يؤديها، وبالمحل الذي يحتاج فيه إليه. وهو في كل ذلك له تعلق بطبيعة العمل الاجتهادي، ونوعه[7].

ويرى طه جابر العلواني أن علماءنا القدامى على اختلاف المعارف التي اشتهروا بها أدركوا ما للسياق من أهميَّة بالغة في جميع العلوم والمعارف ذات العلاقة بالخطاب القرآنيّ من تفسير وحديث وأصول وفقه وعلم كلام وعلوم ومسائل، وذلك لأنَّهم وجدوا فيه وسيلة منهجيَّة تساعد في بيان المراد بخطاب الشارع، ويمكن أن نجد قدراً مشتركاً بينهم، جميعاً، في بيان المراد بالسياق على سبيل الإجمال؛ وهو 'ما ساق الشارع الخطاب من أجله'؛ وهذا الذي يتسوق حض وتحريض، أو منشئ لحكم، أو بيان لسنة كونيَّة، أو دعوة لموعظة أو اعتبار أو مثل أو بيان لسنة اجتماعيَّة أو إنسانيَّة... وهناك قرائن ومؤشرات قد يحتف الخطاب بها تسبقه أو تلحقه إذا كانت من داخل الخطاب، وقد تكون أموراً خارجيَّة مثل الزمان والمكان وعناصر الواقع المختلفة ومناسبات أو أسباب النزول بالنسبة للقرآن المجيد، أو أسباب الورود بالنسبة للسنن النبويَّة؛ ولذلك عرف بينهم مصطلح 'القرينة السياقيَّة' للإشارة إلى بعض القرائن التي قد تحف بالنص بحيث تساعد على بيان مجمل أو تقييد مطلق، أو كشف مبهم أو ترجيح معنى على آخر. والسياق في بعض الأحيان يكون

---

[4]- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417ه/1997م، 131/2. وراجع حديثه عن أهمية معرفة أسباب النزول في فهم كتاب الله تعالى وأهمية معرفة أسباب الورود في فهم السنة النبوية في: الشاطبي، المصدر نفسه، 146/4 وما بعدها.

[5]- الشاطبي، المصدر نفسه، 154/4-155.

[6]بوسلامة، فاطمة، السياق عند الأصوليين، المصطلح والمفهوم، وحدة الإحياء، الرابطة المحمدية، https://www.arrabita.ma/blog/%D8

[7]-حميد الوافي، المعنى بين اللفظ والقصد، في الوظائف المنهجية للسياق، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: 26، شوال 1428ه/2007م، ص 89.

ظاهراً بارزاً لا يحتاج إلى كثير من النظر والتدبر ليظهر، وأحياناً يحتاج إلى شيء من ذلك. وأحياناً يكون السياق لفظيّاً، وأحياناً يكون مقاميّاً، وأخرى يكون سياق نظم، أو سياق لفظ مفرد، وسياق 'نطقيَّة سياقيَّة'.. وبعضهم جعل السياق في صدر الآية والعلاقات بينها وبين بيئتها القرآنيَّة. وهناك من فرّق بين 'السياق والسباق' فاعتبر السياق ما سيقت الآية من أجله، و'السباق' ما سبق الآية. وعلى هذا فإنّ 'السياق' إمَّا أن يراد به نصوص سابقة ولاحقة لما يراد بيانه، أو سيق الخطاب لأجله، أو تأويله بحيث يتَّضح ما سيق الكلام لأجله، بملاحظة بيئة النص التي قد تكون السورة كلها. ويراد بـ'السياق' مقاصد الشريعة، أو عللها وحكمها، أو قصد الشارع الذي يدل النصّ عليه بنوع من أنواع الدلالة، ويستفاد منه بتأويله، أو بيانه. وأحياناً يراد به سبب نزول الآية أو مناسبتها أو سبب ورود الحديث أو مناسبته، ومكونات الواقع الذي نزل الخطاب فيه، وأحوال المخاطَبين. من هنا فإنّ من الممكن القول بأن الأئمة المتقدمين في علومنا النقليَّة المقاصدية والوسائلية قد عرفوا نوعين هاميّن شاملين من أنواع السياق المقاليّ اللّفظيّ والمقاميّ أو الحاليّ. واستفاد بكل أنواع منهما في دراساتهم لخطاب الشارع، وتحديد دلالاته وفقه المراد منه، وتحديد مستوياته في الدلالة، ومستوياته في إنتاج الأحكام[8].

فقد كان موضوع السياق من الموضوعات ذات الاهتمام المشترك بين المعنيّين بعلومنا النقليَّة. وقد نال من الاهتمام ما جعله من المفاهيم الكبرى المشتركة بين علوم الوسائل، أو علوم الآلة، وعلوم المقاصد؛ كيف لا وهو مما يتوقف فهم العديد من آيات الكتاب الكريم عليه. وكذلك فهم مراد رسول الله، عليه السلام، في كل ما جاء به. فـ'الخطاب' رسالة من مرسل إلى مستقبل؛ وهذه الرسالة قد تكون رسالة لإخبار المستقبل عن شيء، أو لدعوته للقيام بشيء مّا، أو الاستفهام منه أو رجائه أو حضّه وتحريضه أو أمره ونهيه. والخطاب ذاته يأتي بصياغات عديدة، وأساليب متنوعة عديدة ولا يمكن للمرسل أن يوصّل ما يريد أو يفصح ويبين عما يقصد بألفاظ النصّ المخاطب به وحدها. وللمستقبل عقليّته ونفسيّته وظروفه وثقافته وبيئته، وكلّها مؤثّرات تساعد أحياناً على فهم مراد المخاطب، وقد تعيق عمليَّة فهم مراده. وكل منهما؛ المرسل والمستقبل يحتاج لملاحظة ذلك الذي نسمّيه بـ'السياق'، بل النصُّ الإنسانيّ عندما يتكوّن إنَّما يتكوّن في سياق حتى يصبح السياق ليس مجرد مؤثّر خارجيّ، بل هو جزء من مكونات النصّ. ولذلك اعتبر بعض الباحثين السياق والنص متكاملين، فالسياق متمّماً للنصِّ، والنصّ متمماً للسياق فيبينهما[9].

فالنصوص إذن مكوّنات للسياقات التي تظهر فيها، والسياقات يجري تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتّاب في مواقف معيَّنة[10].

وبين خطورة الغفلة عن معرفة السياق؛ فقال: (عندما نهمل السياق، أو لا نلتفت إليه بالقدر الكافي نجد أنفسنا نتردّد بين تفسيرات وتأويلات عديدة للقول، قد تتدخل عوامل أخرى ذاتيَّة في اختياراتنا، منها المسلّمات السابقة، ومنها الأيديولوجي، ومنها الثقافة السائدة. وقد نسيئ فهم القول، ونفسّره بشكل خاطئ لا يعبر عن مقصود المتكلّم ومراد الشارع. وعندما نفكر في المستوى الثاني الذي يحدّد السياق فيه القضيَّة التي أراد المتكلّم التعبير عنها فإنّ هذا المستوى يستدعي –ضمناً–لزمان النطق ومكانه، وأية ملابسات أخرى يمكن أن تلاحظ. مما يطلق عليه المعاصرون 'سياق الظرف')[11].

لكن هناك سياق آخر يتلبس بالنص الديني، من قرآن أو سنة، لحظة تنزيله على حوادث الناس وإسقاطه في التاريخ، ليؤدي وظيفة أخرى منوطة به، تتجاوز مجرد الفهم، وهي الاستنباط والحكم والإرشاد والإصلاح، فالنصوص الشرعية متناهية من حيث النزول؛

---

[8]- العلواني، طه جابر، السياق: المفهوم، المنهج، النظري، (مقال)، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: 26، شوال 1428هـ/2007م، ص48

[9]- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، وزارة الثقافة والإعلام العراقيَّة بغداد 1987، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، ص:215، نقلا عن طه جابر العلواني، مرجع سابق، ص49

[10]- نفسه، ص49

[11]- العلواني، مرجع سابق، ص49.

لكنها ليست كذلك من حيث التنزُّيل، ولذا جعل الزركشي النوع الرابع من مآخذ (ما يؤخذ منه) التفسير هو التفسير بالمقتضى؛ فقال: (الرابع: التَّفْسِيرُ بِالْمُقْتَضَى مِنْ مَعْنَى الْكَلَامِ وَالْمُقْتَضَبِ مِنْ قُوَّةِ الشَّرْعِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:" اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلِ"ونقل ما وَرَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَلِيٍّ: هَلْ خَصَّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ مَا عِنْدَنَا غَيْرُ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ أَوْ فَهْمٌ يُؤْتَاهُ الرَّجُلُ، ثم علق عليها بقوله: 'وَعَلَى هَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الذَّوْقِ: لِلْقُرْآنِ نُزُولٌ وَتَنَزُّلٌ فَالنُّزُولُ قَدْ مَضَى وَالتَّنَزُّلُ بَاقٍ إِلَى قيام الساعة' ومن ها هنا اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ فَأَخَذَ كُلُّ واحد برأيه على مقتضى نَظَرِهِ فِي الْمُقْتَضَى) [12]

فللقرآن إذن نزول وتنزّل ولذلك تعددت تقسيمات العلماء للسياق، بين من جعله قسمين: سياق المقال وسياق المقام، وبين من بنى على هذا التقسيم وفرّع عليه أكثر، ورأى أن للسياق أنواعا كثيرة هي: السياق اللغوي والسياق العام والسياق الثقافي والسياق الخارجي وسياق التلقي، ويراد بهذا النوع الأخير السياق المتعلق بثقافة المتلقي وموقفه الفكري والعقائدي ومذهبه السياسي والديني وانتماءاته الإيديولوجية وتباينها عبر العصور، بينما السياق الخارجي هو الحال أو المقام أو الموقف[13]

وإذا كان النوع الأول من السياق، يكاد يكون متفقا عليه بين الدارسين، فإن هذه الوظيفة يلزم فيها نوع مباحثة، تفضي إلى الإقناع بأهميتها. ولذلك فإن المراد بالسياق في هذا المقام هو مراعاة الوضع العام للتشريع في مراحل تنزيل الأحكام الشرعية على واقع المكلف رعيا لحاله، مما يفضي إلى تغيّر الأحكام بما يحقق مقصود الشرع من وضع الشريعة ابتداء، جلبا للمصالح ودفعا للمفاسد وهو المراد بالاجتهاد التنزيلي، وجامع هذا النوع من النظر الاجتهادي ما اصطلح الإمام الشاطبي بالنظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة. وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام، إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فالسياق يؤدي خدمتين إذن في المنهج التشريعي؛ جامعه مراعاة حال المكلف الأولى في مرحلة الفهم، والثانية في مرحلة التنزيل، ولكل من المسلكين المنهجيين مبادئ يستند إليها، وقواعد يعتمدها بما يمهد لبناء نظرية السياق في المنهج التشريعي[14].

وحاصل الأمر أن الاجتهاد الواقع في الشريعة على نوعين: اجتهاد فهم واجتهاد تنزيل. ويلحق بهما أنواع من النظر بجامع الفهم أو التنزيل. وإن لكلا من الاجتهادين؛ اجتهاد الفهم واجتهاد التنزيل خصاصة تلجئه إلى السياق، ويستمدان من قصد الشارع. وعليه يكون السياق بمختلف عناصره، وزمان وروده مكونا من مكونات منهجي الفهم والتنزيل، وخادما لقصد الشرع، وذلك بمراعاة حال المكلف في مرحلة الفهم ومراعاة حاله في مرحلة العمل[15].

فهناك سياق يعين على الفهم وآخر يعين على توظيف الفهم من قبل القارئ في تعاطيه مع الواقع وتفعيل النص الديني معه، ولئن انتهى نزول النص القرآني وورود النص النبوي زمانا ومكانا، فإن التنزّل باق، وهو الذي يتنزل فيه القرآن الكريم والسنة النبوية عبر مراحل تاريخ التشريع ومحطاته وأحداثه ووقائعه، بمجموعة من الضوابط، وهذا التنزّل تحكمه سياقات مختلفة، وعادة ما يقوم به المجدّدون والمصلحون، الذين يوظّفون النصوص الشرعية في إعادة إحياء الدين أو تجديده، وإرشاد الأمة وإصلاح شؤونها على هدي الكتاب والسنة، والإمام ابن باديس من هذا الصنف من العلماء المجتهدين المجددين المصلحين، فقد تصدى لتفسير كتاب الله تعالى،

---

[12]- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1476ه/1957م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 161/2

[13]-لخضر لزرق، السياق وأثره في فهم الحديث النبوي (رسالة دكتوراه)، قسم الكتاب والسنة، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، 1438-1439ه/2017-2018م، ص 48 وما بعدها

[14]-حميد الوافي، المعنى بين اللفظ والقصد، في الوظائف المنهجية للسياق، (مثال)، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: 26، شوال 1428ه/2007م، ص 100-101.

[15]-حميد الوافي، المرجع نفسه، ص 89.

وشرح سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في مجالسه، لكنه لم يكتف ببيان المعاني والدلالات والأحكام والفوائد بل اشتغل على إسقاط مقتضيات الآيات والأحاديث على واقع الأمة المسلمة عموما والأمة الجزائرية خصوصا، متوخيا بذلك إحياء الدين في نفسها وإرشادها إلى طريق الحرية والتحرر، وما يقتضيه ذلك من تجديد في شؤون العقيدة والعبادة والأخلاق والاجتماع، تجديدا نفسيا واجتماعيا، فكان القرآن والسنة وسيلته المثلى في عملية الإصلاح والتجديد.

وقد كشف العلماء المحدَثون عن أهمية سياق تنزيل النص الديني عموما؛ لاسيما النص القرآني في الزمان والمكان، وطالبوا بقراءة سياقية تحقق للقرآن مقاصده في إصلاح الأمة المسلمة وإعادة بنائها؛ فيقول طه جابر العلواني: (قد اتضح مما قدمنا أنَّ 'سياق الحال المعاصر' أنَّنا نقرأ هذا الكتاب القرآن المجيد ونحن نعايش أزمة طاحنة نلتمس في بحثنا في نظمه وخطابه ونصه وعجائبه سبيلا للخروج منها، لأنَّ القرآن المجيد بتلاوة الرسول العظيم، وتعليمه الكتاب والحكمة وتزكيته، وجهاد الناس به جهاداً كبيراً أوجد الأمة، وأنشأها، فهو مصدر التكوين وأس البناء، ومصدر الإحياء، ومنطلق التجديد. إنَّنا نتناول هذا الموضوع القرآنيّ الهام 'السياق'، وأمتنا التي كوّنها الكتاب؛ في حالة تفكك وتشرذم وفرقة واستضعاف وذلة لا مزيد عليها. ملتمسين للخلاص من هذه الحالة بالقرآن سبيلاً يرسمه لنا بمنهجه وسياقه ونظمه ومقاصده وكليَّاته ومحكم آياته. 'فالقراءة السياقيَّة' قراءة من يلتمس بالكتاب الكونيّ الذي يهدي للتي هي أقوم منهجا لإعادة بناء الأمة وإخراجها من أزماتها انطلاقا من منهج التكوين بالقرآن الذي مارسه رسول الله صلى الله عليه وسلم،. إنَّ ''القراءة السياقية'' تنأى بنا عن القراءة وفقاً للتصور الكونيّ الماضويّ السكونيّ التاريخانيّ. كما تنأى بنا عن المنطق اللائكيّ المنسوب إلى الحداثة أو ما بعد الحداثة في دراسة اللاهوت. و'القراءة السياقيَّة' قراءة تساعد على الكشف عن السنن الكونيَّة والاجتماعيَّة والقوانين التي تحكم حركة التاريخ والمجتمع والأمم كافة. و ''القراءة السياقيَّة'' تساعدنا في الكشف عن الغايات والمقاصد التي رسمها الله تعالى لحركة الكون والإنسان والحياة في تفاعل وجدل لا ينقطع حتى تصل البشريَّة إلى غاية حدّدها العليم الخبير. وبـ''القراءة السياقيَّة'' نستطيع أن نلتمس سبيلنا لإعادة البناء.) [16]

ويريد بـ'السياق المعاصر' الأوضاع العالميَّة الراهنة التي نعيشها في عصرنا هذا. وهو سياق اصطلح على تسميته تراثيّاً بـ'سياق الحال أو سياق المقام'. لقد أوجدت هذه الأوضاع بكل متغيِّراتها مصفوفة نظم ومنظومة قيم، وشبكات علاقات نجمت عن مجموعة كبيرة من التغيرُّات والتطوّرات التي خضعت لها البشريَّة خلال القرون الخمسة الأخيرة. فقد تتابعت مجموعة كبيرة من الثورات العقليَّة والعلميَّة والمنطقيَّة والصناعيَّة والتقنيَّة، كل منها قد أدّت إلى إحداث كم هائل من العلاقات وغيرها. وهذه التغيّرات والثورات وإن كانت قد ولدت في بؤرة من الأرض، هي أوروبا، لكنّها لم تلبث أن غمرت العالم كلّه، وانتشرت في جوانبه انتشار اللَّيل والنهار، وشملت آثارها بشكل أو بآخر 'المعمورة كلّها'. [17]

ومن أمثلة مراعاة السياق عند المعاصرين دعوة بعضهم إلى إعادة النظر في تقسيم المعمورة، وتجاوز التقسيم التاريخي للمعمورة؛ بين دار الإسلام ودار الحرب، لأنه تقسيم اجتهادي توفيقي وليس تقسيما توقيفيا، حكمته ظروف تاريخية؛ فهو مجرد تسمية إدارية وسياسية لا غير، وليست هي التسمية الحاكمة في مجال الدعوة، واقترحوا أسماء جديدة تتماشى وسياق العصر، منها: التقسيم الثنائي للمعمورة بين دار الإجابة (دار الإسلام) ودار الدعوة[18]

---

[16]- العلواني، مرجع سابق، ص63

[17]- العلواني، المرجع نفسه، ص59.

[18]- منهم: طه جابر العلواني وبعض المؤسسات الفقهية الإسلامية، انظر: العلواني، طه جابر، دار الدعوة ودار الإجابة (مقال)، أكاديمية العلواني للدراسات القرآنية، https://alwani.org/?p=3092 وانظر: محمد إيكيج، التقسيم الفقهي للعالم بين جدلية التضييق والتحرير لمفهوم الوطن (مقال)، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، Al-Madinah International University https://elibrary.mediu.edu.my › MEDIU06423 والقادري، منير، واقع المسلمين بالغرب من أجل اجتهاد متنور لسياق متغير، (مقال) مجلة الإحياء الرابط المحمدية، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: 26، شوال 1428هـ/2007م ص 102.

ولذلك تقرر في قواعد علم الفقه أن الفتوى تتغير بتغير الزمان، ورغم أن دليل الفتوى قد يكون واحدا لكن التّنزيل اختلف باختلاف سياق الزمان أو الحال، وهذا استنادا للقاعدة الفقهية: ' لا يُنكر تغيُّر الأحكام بتغير الأزمان'[19]

المبحث الأول–أثر سياق الأحوال الدينية على توظيف ابن باديس للحديث النبوي الشريف ومظاهر هذا التوظيف

توطئة: إن البيئة التي ظل ابن باديس يشتغل على إصلاحها هي البيئة الجزائرية بما خالجها من ظروف اجتماعية وتربوية ودينية متشعبة، بعد عشرات العقود من الاحتلال الاستيطاني الذي لم يكتف باستهداف البيئة السياسية والجغرافية للجزائريين؛ بل تعداها إلى الجوانب الدينية والاجتماعية والتربوية والثقافية، ولأن منطلقه في عملية الإصلاح هو الدين الإسلامي الذي يؤمن به الجزائريون ويتحدون عليه ويتميزون به عن الآخر المستعمر النصراني، ويتحصنون به أمام محاولات المسخ والانسلاخ، فقد كان لزاما عليه التصدي لحفظ هذا الدين بإحيائه وتجديده في النفس والاجتماع، وذلك بتنقية عقيدة الجزائريين أو بعضهم مما علق به من شوائب الشرك وتنقية عباداتهم مما علق بها من شوائب البدع، حتى تغدو عبادة صحيحة سالمة متقبلة، وتصحيح الكثير من التصورات والمفاهيم الخاطئة الضالة المضللة، التي كرّستها بعض الطوائف وعملت على تعميمها ونشرها بين الجزائريين، وقد حمّلها ابن باديس في كثير من أقواله وفتاواه مسؤولية ذلك صراحة، ولم يكن إصلاحه الاجتماعي لينجح لو تجاهل هذه القضية الأساس؛ أعني قضية إحياء الدين وتجديده؛ لأن إصلاح الحالة الدينية أساس إصلاح الحالة النفسية والاجتماعية، وفي هذا يقول عنه عبد الرحمن شيبان رحمه الله تعالى: (فوضع منهاجه الإصلاحي العام القائم على الكتاب والسنة، فكان شعاره في دعوته إلى الحياة" :لَا يصْلُحُ آخرُ هذه الأمةِ إلاَّ بما صلُحَ بهِ أولُها "، فالتغيير عنده، إنما هو استجابة طبيعية من الأمة للحياة متى أحيينا فيها قيم الإسلام ومبادئه السامية؛ فتغيّر ما بنفسها، ليغيّر الله ما بها، فالدين هو الأساس الأول لكل إصلاح وتغيير)[20]، وهي إحدى الإكراهات التاريخية التي شكلت أكبر تحدٍ في عملية الإصلاح الشامل، بما يحافظ على هوّية الأمة الجزائرية وأصالتها؛ بل على وجودها وكينونتها، فوجد في القرآن والسنة ملاذا آمنا يستضيء به وينير للأمة به طريقها نحو سبل الرشاد على درب الحرية والتحرر، وقد رمت ظروف البيئة الداخلية بكلكلها على مشروعه؛ فكانت تحدياتها أعسر عليه وأشد ثقلا من التحديات الخارجية؛ لأن التصدي للتحديات الخارجية يتطلب قبل ذلك التصدي للتحديات الداخلية، بما يمكن من تقوّية المناعة الذاتية، وتجاوز نفسية القابلية للاستعمار بتعبير مالك بن نبي، وذلك من خلال تصحيح العقيدة واستعادة صفاء التوحيد، وتصحيح العبادة والتصورات، فاتخذ لذلك منهج التربية والتعليم، ومن خلال مدونة 'مجالس التذكير في شرح كلام البشير النذير' نجد أن للسياق الديني أثرا كبيرا في توظيف النصوص الحديثية في شرحه وبيانه، ومظاهر ذلك تتجلى في شرحه لأحاديث ذات صلة بما سبق جابه بها بدع الكثير من الطوائف وكشف عن ضلالاتهم وانحرافاتهم العقدية والتعبدية التي انتشرت بينهم وبين بعض عوام الجزائريين، ومنها:

أولا–حديث الأعمال بالنيات: عن أَميرِ الْمُؤْمِنِينَ أبي حفْصٍ عُمرَ بنِ الْخَطَّابِ – رضي الله عنه – قالَ: سمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: (إِنَّما الأَعمالُ بالنِّيَّات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امرئٍ مَا نَوَى، فمنْ كانَتْ هجْرَتُهُ إِلَى الله ورَسُولِهِ فهجرتُه إلى الله ورسُولِهِ، ومنْ كانَت هجْرَتُه لدُنْيَا يُصيبُها، أَو امرَأَةٍ يَنْكحُها فهْجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَر إِليْهِ) متَّفَقٌ عَلَيه

لقد تصدى الإمام عبد الحميد بن باديس لشرح حديث 'الاعمال بالنيات' في الفصول الأولى من مجالس التذكير من حديث البشير النذير، وهو حديث عظيم عليه مدار الإسلام كما قرر فقهاء الإسلام منذ القديم إلى جانب ثلاثة أحاديث أخرى، وقد استعان ابن

---

[19]- راجع: القاعدة في: الزحيلي، محمد مصطفى، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة المؤلف، الناشر: دار الفكر– دمشق، ط1، 1427هـ/2006م، 353/1

[20]-راجع كلامه في مقدمته لكتاب مجالس التذكير من كلام البشير النذير لابن باديس، ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من كلام البشير النذير، ص 13.

باديس في شرحه بمدوّنة التراث اللغوي والفقهي والحديثي وكشف عما أورده الفقهاء المسلمون وعلماء اللغة والحديث من شروح لهذا الحديث وما استنبطوه من أحكام وقواعد، قبل أن يعزّز شروحهم بما استنبطه من فوائد[21]؛ لكنه لم يقف عند حدود التراث وتاريخيته، بل اشتغل على إسقاطات فقهية وتنزيلات تربوية راعت سياق عصره وقتئذ، مستهدفا إرشاد الأمة ومحاربة البدع والمظاهر السلبية في سلوك بعض الجزائريين التعبدي والعقدي، وهي من الآثار التي تسبب في انتشارها بعض الجماعات الدينية المنحرفة، التي كثيرا ما تصدى لها ابن باديس في خطبه وكتاباته.

ولأن الأمر الذي سينبه عليه الجزائريين في هذا الجانب خطير يتعلق بالعبادة والعقيدة، فقد عنون له بعنوان فرعي 'تنبيه وتحذير'[22] وهو العنوان الذي سيجلب الأنظار ويحرك النفوس؛ لأن التنبيه يقتضي الانتباه من المخاطبين لتلقي التحذير؛ على غرار ما يفعل الأنبياء والمرسلون الذين أرسلهم الله تعالى مبشرين ومنذرين، فقام ابن باديس في قومه نذيرا من خطر ينتابهم عن شعور منهم أو عن غير شعور، فقسّم الأعمال إلى ثلاثة أقسام: ورأى أنها إما طاعات؛ لأنها مأمور بها وجوبا أو استحبابا، وإما مخالفات لأنها منهي عنها تحريما أو كراهة، وإما مباحات لأنها غير مأمور بها ولا منهي عنها، ولم يتوقف كثيرا عند القسم الأخير لأنه لا يطرح إشكالا ولا يثير التباسا عند المؤمن الملتزم عادة، ولا أثر للنية فيها، قبولا أو ردا، ثوابا أو عقابا، لكنه توقف عند القسم الثاني؛ فقرر أن المخالفات بقسميها المحرم والمكروه، لا تقلبها النيات طاعات لأنها في نفسها غير عمل صالح ولأننا علمنا بالنهي عنها، أن قصد الشارع هو تركها وعدم وجودها، فقصد المكلف مضاد لقصد الشارع فكان ساقطا لا عبرة به ولا أهلية له لقلب الموضع الشرعي[23]؛ كما توقف عند القسم الأول؛ قسم الطاعات لأنه المعني بالتنبيه والتحذير، ولأن الطاعات مظنة التلبيس والتضليل لاسيما من قبل الجهال أو الفرق الضالة التي تتوكّؤ عليها في نشر انحرافاتها والتلبيس على العامة بإعطائها نوعا من المشروعية وتقديمها على أنها قربة من القربات، فرأى أن الطاعات بقسميها الواجب والمستحب هي التي تؤثر فيها النية بالقبول والرد بحسب قصد الله بها وقصد غيره، أو بتفاوت درجات القبول، وبحسب المقصود على ما تقدم وهي المقصودة بالقصد الأول من الحديث. والمباحات أيضا مثلها تؤثر فيها النيات فتقلبها طاعة أو معصية؛ لأن الشرع لما أباحها علمنا أنه لا قصد له لا في وجودها ولا في عدمها من حيث ذاتها، فكان لقصد المكلف حينئذ سبيلا إلى التأثير فيها[24].

وبعد أن قرر هذه القاعدة في المخالفات والطاعات وبين مدى تأثير النية من عدمه في كل قسم، وصل إلى بيت القصيد، من خلال توظيف السياق الجزائري لمعالجة انحراف خطير يقع فيه بعض العامة منهم، فقال: (وقد غفل عن هذه الحقيقة أقوام–عفا الله عنهم– فتراهم يستدلون على أعمالهم بقوله –صلى الله عليه وآله وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، قاصدين إلى تبريرها غير ملتفتين إلى كونها من قسم الطاعات أو المخالفات أو المباحات. وكثيرا ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج إلى الأضرحة وإيقاد الشموع عليها والنذور لها وكالرقص وضرب الدفّ في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات، ويتوكّأون في ذلك كله على (إنما الأعمال بالنيات). كلا، ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، فإن البدع كلها من قسم المخالفات وإن المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات. فحذار أيها الإخوان في الله من هذا الجهل الذي أدى إلى تحريف الكلم عن مواضعه وإلى المداومة على المنكر والفرح به، ونعوذ بالله–لنا ولجميع إخواننا المسلمين–أن نكون من الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهم يَحْسبُونَ

---

[21]- راجع شرحه لحديث 'الأعمال بالنيات'، في: ابن باديس، المصدر نفسه، ص 58 وما بعدها

[22]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص63.

[23]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص63

[24]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص63

أنَّهم يُحسنُون صُنعاً. ونسأله تعالى لنا ولإخواننا المسلمين أن نكون من الذين يرجون لقاء ربهم فيعملون الأعمال الصالحة ولا يشركون بعبادة ربهم أحدا)[25].

فتحقق له التنبيه والتحذير من هذا الانحراف الخطير أثناء توظيفه حديث الإعمال بالنيات، مراعيا السياق الجزائري وقتئذ وما تلبس ببعض الجزائريين من سوء فهم للقواعد المتعلقة بالنية وعلاقتها بالطاعات والمخالفات والمباحات.

ثانيا–حديث الحلف واليمين عن ابن عباس قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلم–: (إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت). رواه ابن ماجة في هذا الباب بسند حسن

لقد وظّف الإمام ابن باديس في ضوء هذا الحديث السياق التاريخي للحالة الجزائرية ليعالج ما في نفوس بعض الجزائريين من مظاهر الشرك، ويصحح معتقداتهم ويخلصها مما شابها منه، وقد رأى أن هذا النوع من الشرك لا يخرج الجزائريين الواقعين فيه عن الملّة لكنه خطير؛ فبيّن أن 'الشرك يكون بالاعتقاد وهذا مخرج عن الإيمان ويكون بالقول مثل الكلمة المتقدمة وهذا لا يخرج صاحبه من الإيمان وإنما يحرم عليه النطق به' ثم يفصل أكثر في هذه القاعدة من خلال أمثلة واضحة مبينة، فقال: (من الصفات ما يثبت لله على ما يليق بجلاله ويثبت للمخلوق على ما يليق بحدوثه وافتقاره كالمشيئة وكالعطاء، عندما تكون للمخلوق أسباب فيها، فهذا يسند إليهما ويحرم أن يسوى بينهما في العبارة، ويجب الإتيان بعبارة صريحة في عدم التسوية، فأما المشيئة فقد تقدمت، وأما العطاء فكأن تقول لمن أعطاك شيئا هذا من فضل الله ثم من فضلك، ومنها ما لا يجوز أن يجمع فيه بين الإسناد للمخلوق والخالق أبدا كالعطاء الذي لا دخل للمخلوق فيه لخروجه عن الأسباب الممكّن هو منها؛ فلا يجوز أن تقول في غيث نزل مثلا هذا من الله ومن فلان، ولا ثم من فلان؛ لأنه لا دخل لأحد فيما وراء الأسباب)[26].

قبل أن يشرع في توظيف السياق وتنزيله على واقع الجزائريين فيقول تحت عنوان فرعي 'تطبيق': (إذا نظرنا في حالة السواد الأعظم منا معشر المسلمين الجزائريين فإننا نجد هذه الكلمات شائعة بينهم فاشية على ألسنتهم وهي (بربي والشيخ) وهم يعنون أن ما يفعلونه هو بالله وبتصرف الشيخ (بربي والصالحين) (بربي والناس الملاح) (إذا حب ربي والشيخ) (شوف ربي والشيخ)). وهي كلها من كلمات الشرك كما ترى) وبعد هذا الحكم العقدي على هذه الكلمات التي تتداول بين بعض الجزائريين عصرئذ، شرع في بيان وجه إلحاقها بالشرك فقال: (فأما قولهم: (بربي والشيخ) ونحوه فمما لا يجوز أن يذكر فيه المخلوق مع الخالق قطعا؛ لأن ما تفعله هو بالله وحده أي بتقديره وتيسيره ولا دخل للمخلوق فيه، وأما قوله: (إذا حب الله والشيخ) فمما لا يجوز إلا بلفظة ثم. فيكون بمعنى إذا شاء الله ثم شاء الشيخ إذا كان هذا الشيخ حيا وكان الأمر مما يمكن أن تدخل مشيئته فيه. ولقد شب على هذه الكلمات ونحوها الصغير، وشاب عليها الكبير، وانقطع عنها النهي والتغيير، حتى صارت كأنها من الكلمات المشروعة، وصار قلعها من الألسنة من أصعب الأمور، وأصبحت كلمة بالله وحده ونحوها مهجورة لديهم منسية عندهم ثقيلة على أسماعهم ثقل من يدعوهم إليها ويلهج بها على قلوبهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[27].

ليقدم هذا البيان علاجا للجزائريين مما علق بهم من مظاهر الشرك جراء هذه الكلمات فقال تحت عنوان فرعي 'علاج': (على من عرف هذا الحديث النبوي أن يعمل به في نفسه وأن ينشره بين الناس وأن يعالجهم به بتفهيمهم فيه وتحذيرهم من مغبة مخالفته والإصرار على معاندته. ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم. فإلى التوحيد أيها المسلمون، وإلى الإرشاد أيها العالمون، والله مع الصابرين)[28].

---

[25]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص63-64.

[26]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص111

[27]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص-112.111

[28]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص112

ثالثا–حديث قيام الساعة: عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :–(لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ وَحَتَّى يَعْبُدُوا الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي). رواه الترمذي. وقال: هذا حديث صحيح.

على الرغم من أن هذا الحديث لا علاقة له ظاهريا بما سيشخّصه الإمام من داء ويسعى لعلاجه؛ إلا أنه سيجيد الربط بعد ذلك بين مقتضى هذا الحديث وواقع بعض الطوائف بالجزائر التي يرى أنها انحرفت ووقعت في المحظور الذي حذر منه هذا الحديث النبوي الشريف، ليقوم بتنزيله على واقع معيش، أين انتهى الأمر ببعض تلك الطوائف لتقديس من لا يتصف بذلك، ودعوة من لا يستحق ذلك من البشر والجماد.

فيرى أن في الناس اليوم على عهده، طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامّين وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونها إلى الله ويتوسطون لها إليه. ويزيدون أنهم يتصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب. وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاءً لها وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر. وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون؛ فهذه الطوائف الكثيرة كما قد لحقت بالمشركين وصدق رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلم–في قوله: (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين)؛ بل يذهب أبعد من ذلك فيرى أن في الناس طوائف كثيرة لها أشجار ولها أحجار تسميها بأسماء وتذكرها بالتعظيم وتذبح عندها الذبائح وتوقد عليها الشموع وتحرق عندها البخور وتتمسح بها وتتمرغ عليها. مثل فعل الجاهلية أو تزيد، وهذه قد تكون أسوأ من الأولى، ويؤكد أن هذا كله واقع في الأمة لا شك فيه[29].

وبعد أن أكد وجود هذه الظواهر في الأمة الجزائرية شرع في بيان واجب العلماء تجاهها؛ حتى ينقذوا الأمة من آثارها؛ فقال: (وكما كان من نصح نبيها–صلى الله عليه وآله وسلم–أن أنذرها بوقوعه فيها قبل وقوعه –فإن من نصح علمائها لها أن يعرفوها به اليوم بعد وقوعه، ويصوروه لها على صورته الشركية الوثنية التي ينفر منها المسلم بطبعه. ولو أن الأمة سمعت صيحات الإنكار من كل ذي علم لأقلعت عن ضلالها. ورجعت إلى رشدها فما أسعد من نصحها من أهل العلم وجاهد لإنقاذها. وما أشقى من غشها وزادها رسوخا في ضلالها، وتماديا في هلاكها، فحيهلا على العمل أيها المصلحون الناصحون المخلصون، فإن عهد الغش والخديعة قد آذن بذهاب، وأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب)[30].

رابعا–حديث بناء القبور على المساجد: عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا–أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–فقال: (إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ)، رواه الشيخان.

بعد أن قرر ابن باديس أن هذا الحديث نص صريح في المنع من بناء المساجد على قبور الصالحين، وتصوير صورهم، وفيه الوعيد الشديد على ذلك[31]. شرع في تنزيله على السياق الجزائري عصرئذ ليعالج مشكلة عقدية حذر منها هذا الحديث؛ فقال: (هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا. تجد أكثر أو كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصلاح، ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون) [32].

---

[29]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص94-95

[30]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص95.

[31]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص148

[32]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص149.

وهو يدرك أن ثمة في صفوف الجزائريين وطوائفهم من يبرر مثل هكذا سلوك ويدافع عنه، ويسعى لتبريره شرعا؛ سواء بإيراد أدلة شرعية على ذلك أو توجيه أدلة النهي وتأويلها بما يجعلها لا تنسحب في دلالاته وأحكامها عما يفعلونه من بناء القبور؛ لذلك عمد ابن باديس إلى إيراد إحدى أخطر الشبهات التي يتعلقون بها ويضللون بها أتباعهم وعوام الناس، وشرع في الرد عليها؛ فقال: (فإن قيل: إنما بنيت المساجد على تلك القبور للتبرك بأصحابها لا لعبادتهم. قلنا: إن النهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر، بقطع النظر على قصد صاحبه به، ولو كانت صورة البناء للتبرّك مرادة بالنهي لاستثناها الشرع، فلما لم يستثنها علمنا أن النهي على العموم، وذلك لأنها وإن لم تؤد إلى عبادة المخلوق في الحال فإنها في مظنة أن تؤدي إلى ذلك في المآل. وذرائع الفساد تسد، لا سيما ذريعة الشرك ودعاء غير الله التي تهدم صروح التوحيد. وانظر إلى ما جاء في حديث ابن عباس في أصنام قوم نوح وكيف كان أصل وضعها، وكيف كان مآلها، وتعال إلى الواقع المشاهد نتحاكم إليه، فإننا نشاهد جماهير العوام يتوجهون لأصحاب القبور ويسألونهم، وينذرون لهم، ويتمسحون بتوابيتهم، وقد يطوفون بها، ويحصل لهم من الخشوع والابتهال والتضرع ما لا يشاهد منهم إذا كانوا في بيوت الله التي لا مقابر فيها. فهذا هو الذي حذر منه الشرع قد أدت إليه كله، وهبها لم تؤد إلى شيء منه أصلا، فكفانا عموم النهي وصراحته، والعاقل من نظر بإنصاف ولم يغتر بكل قول قيل، علينا أن نصدّق بهذا الحديث بقلوبنا، فنعلم أن بناء المساجد على القبور من عمل شرار الخلق كما وصفهم النبي–صلى الله عليه وآله وسلم–وأن تنطق بذلك ألسنتنا كما نطق به هذا الحديث الشريف وأن نبني عليه أعمالنا، فلا نبني مسجداً على قبور ولا نعين عليه، وأن ننكره كما ننكر سائر المنكرات حسب جهدنا)[33]

وقد حظيت مسألة محاربة الشرك بشتى مظاهره بنقاش كبير من قبل علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ذلك العهد؛ على غرار نظرائهم في المشرق العربي والإسلامي؛ لذلك ألف مبارك الميلي وهو أحد علماء الجمعية البارزين كتابه المعنون ب'رسالة الشرك ومظاهره' وهي مجموعة مقالات نشرها صاحبها تباعا في جريدة البصائر، وعلى الرغم من أن المؤلف لم يؤلف كتابه تأثرا بغيره أو محاكاة له؛ على غرار الحركة الوهابية التي ظهرت في نجد والحجاز وجعلت من هذه المسألة مشروعها الأساس في التغيير، وإنما ألفه انطلاقا من واقعه الجزائري؛ إلا أنه استدرك وأضاف بعض الإضافات بعد اطلاعه على كتاب محمد بن عبد الوهاب المعنون ب'فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد' فيقول: (وبعد تمام التأليف، وقبل الشروع في الطبع؛ اتصلت بهدية من جدة، من الأخ في الله السيد محمد نصيف، تشتمل على كتاب "فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد " لابن عبد الوهاب، فعلّقت منه فوائد ألحقتها بمواضعها معزوّة إليه، ولو اطلعت عليه قبل كتابة الرسالة؛ لخفف علي من عناء ابتكار العناوين وتنسيقها)[34].

فكتابه انتاج جزائري صرف؛ بل قال عنه صاحبه: (وقد تحرّينا فيما تخيّرنا من أطراف هذا الموضوع وطرق عرضه والإبانة عنه ما رأينا حاجة شعبنا إليه أقوى، وأسلوب العصر له أدعى، فكل أمة وحاجتها، وكل عصر وعرضه. ولم أحتذ فيما كتبت إلا ما تخيله فكري، ولم أنسج فيما جمعت على منوال غيري.. فهذه رسالة في موضوع بور، على أسلوب من عندي بكر) [35]. وهي الرسالة التي أقرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ حيث قال العالم العربي التبسي في شأنها: (وعرض هذه الرسالة على مجلس إدارة الجمعية، فتصفحها، واستقصى مسائلها؛ فإذا هي رسالة تعد في أوليات الرسائل أو الكتب المؤلفة في نصر السّنن وإماتة البدع، تقر بها عين السّنة والسنيين، وينشرح لها صدور المؤمنين، وتكون نكبة على أولئك الغاشين للإسلام والمسلمين من جهلة المسلمين ومن أحمرة المستعمرين، الذين يجدون من هذه البدع أكبر عون لهم على استعباد الأمم؛ فيتخذون هذه البدع التي ينسبها البدعيون إلى الدين الإسلامي مخدراً يخدرون بها عقول الجماهير، وإذا تخدرت العقول وأصبحت تروج الأوهام وجدت الأجواء التي يرجوها غلاة المستعمرين

---

[33]- ابن باديس، عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 149-150.

[34]- الميلي، مبارك بن محمد الجزائري، رسالة الشرك ومظاهره، تحقيق أبو عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر والتوزيع ط1، 1422هـ/2001م، ص 38.

[35]- الميلي، المصدر نفسه، ص 37-38

للأمم المصابة برؤساء دينيين أو دنيويين يغشّون أممهم ويتاجرون فيها. وإن المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر بإجماع أعضائه أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، ويوافق مؤلفها على ما فيها، ويدعو المسلمين إلى دراستها والعمل بما فيها؛ فإنه العمل بالدين)[36].

وبهذه التزكية تمسي الرسالة معبرة عن رأي علماء الجمعية ككل، وليس عن رأي صاحبها فحسب؛ فكأنها لسان حال الجمعية وموقفها من قضية الشرك وما تعلق به من القضايا التي وردت فيها، وقد صدر هذا الكتاب مستوعبا لكل القضايا والمسائل المتعلقة بالعقيدة ومظاهر الشرك والسّنن والبدع التي ظهرت عند بعض أفراد أو جماعات من المجتمع الجزائري، وكشف عن حكمها الشرعي، مستندا لنصوص من الكتاب والسنة وأقوال الفقهاء، لذلك نجد فيه موضوعات من هذا القبيل على غرار: الدعاء، والولاية والوسيلة والشفاعة، والتبرك والذبائح والزردات والسحر، والزيارة والمزارات، والرقية والعزيمة والتميمة والنوء، والكرامة والنذر واليمين، والخرافات والمنامات وغيرها من الموضوعات ذات الصلة ببعض ظواهر الواقع الجزائري. كما جاءت قصيدة العالم الطيب العقبي المعونة ب 'إلى الدين الخالص' لتصب في المصب ذاته؛ أعني محاربة البدع ومظاهر الشرك التي بثّتها بعض الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري —من وجهة نظر صاحبها–[37]. وقد أشاد بها مبارك الميلي وخصص لها بابا في كتابه وقال عنها: (كانت تلك القصيدة أوّل معول مؤثر في هيكل المقدسات الطرقية، ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجراءة، ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطرقية، إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه، وحالته في الجمود والتقديس لكل خرافة في الوجود)[38].

خامسا–حديث الصدق والكذب: عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ –(عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا)، رواه البخاري ومسلم في صحيحهما واللفظ لمسلم.

إن تربية النفوس على الصدق كفيل بإصلاحها وسلامة عبادتها، لذلك كان واجبا على ابن باديس وهو يخوض غمار الإصلاح الديني أن ينبه المسلمين الجزائريين إلى ضرورة الصدق في حياتهم قلبا ولسانا ومعاملة.

فبعد أن شرح ابن باديس هذا الحديث وكشف عن فائدتين عظيمتين له، (أولهما): أن بين الخصال؛ خصال البر وخصال الشر تناسبا وتوالدا، وهذا أصل يحتاج إليه في تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس وعلاج أدوائها، فإن من عرف المرض الأصلي الذي نشأت منه أمراض أخرى سهل عليه إذا عالجه أن يقتلع–بإذن الله–الباقي، ومن عرف أصل الخير سهل عليه إذا تمسك به أن يحصل على فروعه. و(ثانيهما) إن تكرر العمل بمقتضى خلق من الأخلاق يقوّيه ويثبته، وأن العمل على مقتضى ضده يضعه ويزيله، وهذا أصل عظيم أيضا في التربية يعلمنا أن التسّاهل في الأعمال السيئة ولو كانت في نظرنا طفيفة يفضي بنا إلى استعصاء داء الرذيلة، وأن القيام بالأعمال الحسنة ولو كانت طفيفة يبلغ بنا إلى رسوخ الفضيلة[39]. قام بتنزيل مقتضى الحديث على واقع الجزائريين المعيش ووضعه في سياق عصره ليعالج أمرين بدا له أنهما متفشيان بين العموم والخصوص:

---

[36]- الميلي، المصدر نفسه، ص29.

[37]- راجع هذه الموضوعات والموقف منها في: الميلي، المصدر نفسه، ص 39 وما بعدها.

[38]- الميلي، المصدر نفسه، ص 147 ونص القصيدة كاملا من ص 147 إلى ص 151

[39]- ابن باديس، المصدر السابق، ص 115-116.

أولهما: يتعلق بعموم الناس أين يجتمعون في الأماكن العمومية، والفضاءات العامة: حيث مواطن الهزل ومجالس البسط، وهي المواطن التي يتساهل فيها الناس فيلقون فيها الكلام بلا ضبط وتجري ألسنتهم بالكذب من غير مبالاة ولا احتياط فيقعون في الإثم على الكذب والإثم على التهاون بالمعصية ويتعوّدون ذلك التساهل حتى يقعوا في الوعيد المذكور[40].

وثانيهما يتعلق بخصوص الناس؛ لاسيما الخطباء منهم: حيث يرى ابن باديس أن من مظاهر قلة الاحتياط في الدين وعدم الاحترام للعلم ما يجري على ألسنة كثير من الناس قولهم (قال رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم–). دون معرفة برتبة الحديث عند أهله، بالصحة أو الضعف. ومصيبة بعض المتسمّين بالعلم والقائمين بالخطب الجمعية في هذا أشد وأضر –كما يقول– لتعديها منهم إلى غيرهم ونشرهم الموضوعات الكثيرة في الناس، ولا يكفيهم أنهم سمعوا أو وجدوا فقالوا، فقد قال النبي– صلى الله عليه وآله وسلم: (كفى بالمرء كذبا أن يُحدِّث بكلِّ ما سمع) رواه مسلم في مقدمة صحيحه، والكذب عليه– صلى الله عليه وآله وسلم– عظيم، والتحري فيما دونه واجب فكيف به، خصوصا وقد قال هو عليه وآله الصلاة والسلام: (يكون في آخر الزمان دجَّالُون كذَّابون يأتونَكُم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤُكم فإيَّاكم وإياهم لا يُضلُّونَكم ولا يُفتنُونَكُم)، رواه مسلم في مقدمة صحيحه[41]. ونقل عن الإمام سيدي محمد السنوسي–رحمة الله عليه–في شرحه لهذا الموضع قوله: (وعلماء السوء والرهبان على غير أصل سنّة كلهم داخلون في هذا المعنى وما أكثرهم في زماننا (القرن التاسع) نسأل الله تبارك وتعالى السلامة من شر هذا الزمان وشر أهله) انتهى كلامه[42].

لذلك يحذر الفريقين من العموم والخصوص من الكذب فيقول: (فعلى العاقل أن يضبط لسانه في الجد والهزل، وأن يحترس من الكذب في الجليل والحقير، وأن يتثبّت فيما ينقل ويروي من حديث الناس، وأن يتثبّت أكثر وأبلغ فيما يروي في الدين)[43].

المبحث الثاني: أثر سياق الأحوال التربوية والاجتماعية على توظيف ابن باديس للحديث النبوي ومظاهر التوظيف

توطئة: لقد وقف الإمام ابن باديس على الكثير من الظواهر التربوية والنفسية والاجتماعية التي ينبغي استئصالها من المجتمع الجزائري بعد أن انتشرت فيه بفعل تراكم عوامل كثيرة متداخلة بين التاريخ والاجتماع والسياسة، فوجد في الأحاديث النبوية إلى جانب الآيات القرآنية المصدر الأساس الذي يستقي منه الدواء الشافي لأمراض الأمة وعللها، والتصدي لإصلاح الحالة النفسية والاجتماعية، وهو المحور الثاني من محاور مشروعه الإصلاحي بعد إصلاح الحالة الدينية تحقيقا للإصلاح الشامل –كما قلنا– بما يحافظ على هوية الأمة الجزائرية وأصالتها؛ بل على وجودها وكينونتها، ويحقق لها مناعتها وتميزها عن الأمم، لاسيما تميزها عن الأمة المستعمِرة، ويعيد لها الثقة بالنفس ويبعث فيه الأمل ونفسية الانتصار والاعتزاز بالذات كشعور جمعي ضروري تندفع به قدما على درب الحرية والتحرر، ومحاصرة مشاعر الانهزام والإحباط الفردية والجماعية، الفكرية والسياسية، ومن خلال مدوّنة 'مجالس التذكير في شرح كلام البشير النذير' نجد أن للسياق التربوي والاجتماعي أثرا كبيرا في توظيف النصوص الحديثية في شرحه وبيانه، ومظاهر ذلك تتجلى في شرحه لأحاديث ذات صلة بما سبق، عالج بها مشكلات تعليمية وتربوية تتعلق بالمجتمع عموما وبالنساء خصوصا، بدت بفعل تراكم الأعراف والعادات وكأنها شرع، وما هي بالشرع؛ بل الشرع ينافيها ويحاربها، ومنها:

أولا–حديث تعليم النساء: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ–رضي الله عنه–: قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ. فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ. فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: (مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ) فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ، فَقَالَ: (وَاثْنَتَيْنِ) .رواه البخاري.

---

[40]- ابن باديس، المصدر السابق، ص 116

[41]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 117

[42]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 117

[43]- ابن باديس، مصدر سابق، ص 117

لقد حظيت قضية تعليم النساء باهتمام بالغ من قبل الإمام ابن باديس؛ ففي الوقت الذي احتدم الجدل بين بعض علماء المشرق حول حكم تعليم النساء، بين من يرى مشروعيته ويدافع عن حقّ النساء في ذلك، ومن يحظره عليهن؛ حتى قال البعض 'إن النساء ربات الخدور يعمرن المنازل وإن وظيفتهن تنتهي عند عتبة باب البيت'[44] لم يكتف ابن باديس بالتأكيد على مشروعية؛ ذلك بل قام بتعليمهن بالفعل، فقد شرع في فتح أقسام لهن؛ ففتح قسما للبنات جنبا إلى جنب مع أقسام للبنين؛ حيث بادر إلى تأسيس جمعية التربية والتعليم بقسنطينة عام 1830م التي أوكلت لها هذه المهمة، وشرع في فتح المدارس الحرة في القطر الجزائري، وفسح المجال أمام البنت للتعلّم، بتخصيص أقسام خاصة لها، وبدعوته الأولياء بإلحاق أبنائهم وبناتهم بالمدارس الإصلاحية، وجعله تعليم البنات مجانيا سواء كن فقيرات أو غنيات[45].

وقد سار ابن باديس في هذا المشروع على منوال الإصلاحيين في المشرق والمغرب على غرار محمد عبده، وكذا الشيخ عبد القادر المجاوي الذي كان يرى أن صلاح المجتمع بإصلاح المرأة، ومن بين وسائل إصلاحها تعليمها تعليما كاملا مفيدا غير منقوص، وكذا محمد بن مصطفى بن الخوجة الذي كان يرى أن تعليم البنات مبتدأ كلّ إصلاح، وهو صاحب كتاب 'الاكتراث في حقوق البنات' الذي صدر قبل كتاب قاسم أمين 'تحرير المرأة'، وأيضا العالم عمر بن قدور الجزائري الذي ربط تخلّف الأمة بجهل المرأة، فقد جاهر هؤلاء وغيرهم من المصلحين الذين سبقوا ابن باديس بضرورة الإصلاح؛ لكن حالت ظروف الاستعمار دون تجسيد ما كانوا يتوخّونه ويحلمون به لبعث مشروع إصلاحي لفائدة المرأة الجزائرية[46]،

وقد أدرك ابن باديس أهمية تعليم النساء وانطلق في مشروعه من نصوص الشريعة الإسلامية التي تعزز موقفه وتعطيه شرعية العمل من أجله ومشروعية لمشروعه الإصلاحي؛ لاسيما في الزمن الاستعماري لأن أولى شروط التحرير هو التعلم، وفي سياق تلك الظروف الاستعمارية وظّف الحديث السابق ليستنبط منه أحكاما فقهية، ويستخلص فوائد تسترشد بها المرأة الجزائرية في طريقها نحو بناء الأسرة وإصلاح المجتمع وتحرير الوطن، فكان مما استخلصه منه:

- النساء شقائق الرجال في التكليف؛ لذلك من الواجب تعليمهن وتعلمهن، وقد علمهن–صلى الله عليه وآله وسلم–وأقرّهن على طلب التعلم، واعتز بهن، وتفقّدهن كما في حديث ابن عباس: أن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–خرج ومعه بلال فظنّ أنه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه.
- لا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التعلّم، فإما أن يُفردن بيوم كما في هذا الحديث، وإما أن يتأخرن عن صفوف الرجال، كما مر في حديث ابن عباس–رضي الله عنه–
- يُجعل لتعليم النساء يوم خاص بهن، ويتكرر هذا اليوم بقدر الحاجة؛ ولما كانت الحاجة دائمة فاليوم مثلها.
- فيه عظيم أجر من أصيب في أفلاذ كبده إذا حزن ولم يقل قبيحا، وجاء التنصيص على الرجال فهم مثل النساء في هذه المثابة.
- وفيه البداية في التعليم بما تشتد إليه حاجة المتعلم. فإن حنان النساء وضعفهن يحملانهن على الجزع الشديد وقد يخرج بهن إلى القبيح، فذكر لهن ما يكون عدة لهن ووقاية عند نزول المصيبة.

---

[44]-قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي، طبعة 2010م، ص20

[45]- زهير بن علي، المدرسة الإصلاحية بالجزائر ودورها في تعليم البنات وإصلاح المرأة خلال النصف الأول من القرن العشرين (مقال)، مجلة المعيار، المجلد: 24 العدد: 51، السنة 2020م، ص 313.

[46]- زهير بن علي، المرجع نفسه، ص 308 وما بعدها

- وفيه ما ينبغي من تهيئة القلوب وتحضير النفوس لتلقي التكاليف الشرعية لتنشرح لها الصدور وتنشط فيها الجوارح ولذا قدّم الوعظ على الأمر، فلنجعل هذا الحديث الشريف دليلنا ومرشدنا في كل ما نسعى إليه من تعليم النساء والبنات[47].

هذه هي خلاصة الأحكام والفوائد والمعاني التي أوصله إليها اجتهاده وهو يستنطق الحديث النبوي ويقلّب معانيه اللغوية والشرعية ومختلف محامله وتأويلاته، ويُنزله في سياق تاريخي خطير، وكأنه ورد للتو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنعم بها خلاصة، وأنعم به تنزيلا، فقد أعطى للحديث دوره المنوط به في الإصلاح والإرشاد ولم يبقه حبيس معانٍ ودلالات تراثية منفصلة عن واقع الناس المعيش في عهده؛ وإن دلّ على شيء فإنما يدل على قوة الفهم البادیسية وحسن الاستدلال، والتشبع بعقلية الاجتهاد والتجديد، وبنفسية الإصلاح التي تحمل كل مصلح على حسن تشخيص داء أمته وحسن وصف الدواء لعلاجه مما ورد عن الشرع الحنيف، فلو كان ابن باديس مجرد عالم تراثي حافظ للمتون ومردد للنّقول لما اهتدى لمثل هكذا توظيفات اقتضتها سياقات تاريخية.

وقد عزز دفاعه عن حق المرأة في التعليم وحرصه على القيام بذلك عند شرحه لحديث آخر عَنِ الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: (أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِهَا الْكِتَابَةَ). رواه أبو داوود حين قال: (وفيه تعليم النساء الكتابة، واستدل به على ذلك جماعة من الأئمة منهم الخطابي في شرح السنن، وصاحب المنتقى. وأقوى منه في الاستدلال العمومات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فإن مذهب الجماهير، وهو المذهب الحق، أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنّساء، إلا بمخصص يخرجهن من نص أو إجماع أو بضرورة طبيعية؛ لأن النساء شقائق الرجال في التكليف)[48].

ثم يصل إلى بيت القصيد ولب المشكلة ووسيلة حلها، ليصدع بضرورة تعليم المرأة ووجوبه، فيقرر استنادا إلى هذه الأدلة، وسيراً على ما استفاض في تاريخ الأمة، من العالمات الكاتبات الكثيرات –كما يقول– (علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا، على أساس ديننا وقوميّتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة. وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم)[49].

ثم يعزز توجهه الإصلاحي هذا عند شرح واستخلاص أحكام لحديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–خَطَبَ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَلِي عِيَالٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–: (خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ). رواه مسلم؛ حيث يقرر "أن هذا الحديث الشريف يبين لنا ما خلقت له المرأة من العمل العظيم في الحياة. ويرشدنا بذلك لوجوب القيام عليها وتهيئتها لذلك بالتربية والتعليم، فتكون تربيتنا وتعليمنا لها بما يقوي فيها هذه الصفات: العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة فيه، والشفقة على الولد وحسن تربيته، وكل زيادة على هذه –بعد تهذيب أخلاقها، وتصحيح دينها، وتحبيبها في قومها–فهي ضارة بها، أو مخرجة لها عن مهمتها العظيمة، ملحقة الضرر بقومها"[50].

ثانيا–حديث تعلم اللغات المحتاج إليها: عن زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، قَالَ: (أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْته لَهُ قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ) رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما

أورد ابن باديس هذا الحديث وشرحه وبيّن سبب وروده فقال: (لما نزل النبي–صلى الله عليه وآله وسلم–بالمدينة مهاجرا، كان بها وبضواحيها مع الأوس والخزرج–رضي الله عنهم–اليهود، فأقرهم النبي–صلى الله عليه وآله وسلم–وكتب بينه وبينهم عهدا، وكانت

---

[47]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 156

[48]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 158-159

[49]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 159

[50]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 162

الكتب تدور بينه وبينهم في الشؤون والمصالح من الطرفين. فكانوا يكاتبونه بالخط العبراني، وكانت لغتهم العربية، ولكنهم كانوا يكتبون بالخط العبري، فأمر النبي– صلى الله عليه وآله وسلم– كاتبه زيد بن ثابت– رضي الله عنه– أن يتعلم الخط العبري، ليكتب له إليهم، ويقرأ له ما يرد عليه منهم، فيكون على يقين من كلامهم إليه، وبلوغ كلامه إليهم، وما كان ليحصل له هذا اليقين– وهم ليسوا بمحل الثقة– لو تولى ذلك واحد منهم، فقد لا يكتب عنه كل ما يقوله لهم، وقد لا يقول له كل ما كتبوا إليه، فتعاطى زيد تعلّم الخط العبراني، فما مضى عليه نصف شهر حتى حذقه، وتولى الكتابة عن النبي– صلى الله عليه وآله وسلم– والقراءة له) [51].

وبعد بيان سبب ورود الحديث ليضعه في سياقه التاريخي ويستعين به على الفهم، شرع في عملية التنزيل على الواقع المعيش، وذلك باستنباط بعض الأحكام والفوائد منه؛ مراعيا سياق العصر الذي يعيش فيه، عالميا ووطنيا، فأكد أن كل قوم تربط بينهم المصالح لا بد لهم من التعاون، ولا يتم التعاون إلا بالتفاهم، والتفاهم بالمشافهة والكتابة، فعلى القوم المترابطين بالمصلحة أن يفهموا بعضهم لغة بعض وخطه. وبقدر ما تكثر الأقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللغات والخطوط ويلزم تعلمها، لأن العلة هي الحاجة. وسواء كانت المصلحة التي تربط الأقوام عمرانية أو علمية، لأن المصلحة من حيث هي مصلحة محتاج إلى تحصيلها، والنبي–صلى الله عليه وآله وسلم–أمر زيدا بتعلم الكتابة لأن اللغة كانت عربية، ولو كانت لغة أخرى لأمره بتعلمها لعلة الحاجة، والحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، وقد جاء عن زيد من طريق أخرى–ذكرها الترمذي–أن النبي–صلى الله عليه وآله وسلم–أمره أن يتعلم السريانية[52].

ثم يلتفت للواقع الجزائري فيقول بناء على ما سبق: (فنحن اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح، علينا أن نعرف لغتهم وخطهم، كما عليهم هم أن يعرفوا لغتنا وخطنا. وهذه السنة أصل في اتخاذ الكتبة والتراجمة في الدولة، وما يشترط فيهم من العلم والأمانة. هذه السنة أصل في ضبط أمور الدولة بالكتابة فيما يصدر عنها وفيما يوجه إليها. ومثلها ضبط كل المعاملات، فهي أصل في التسجيل على العموم. وهكذا تجد سنة النبي–صلى الله عليه وآله وسلم–إذا تتبعتها–قد قررت —بالفعل–أصولا كثيرة من أصول المدنية والعمران، ولهذا كان على قارئها أن يتناولها للفهم والاستنباط والتطبيق على الأحوال) [53].

ثالثا–حديث هلاك الناس: عن أبي هريرة رضي الله عنه، رَسُولُ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ–قَالَ: (إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ) وراه مسلم

لم يفُت ابن باديس وهو يعيش واقع المجتمع الجزائري أن يقف على نفسية الإحباط واليأس التي يعانيها الجزائريون بسبب ما آلت إليه أوضاعهم المادية والأدبية جراء عقود من الاحتلال الاستيطاني الذي حرمهم كل الحقوق الطبيعية والمدنية؛ كالحق في الحياة وفي الحرية وفي الكرامة وفي الملك، وفي التعلم والعمل وحرية التنقل وتولي الوظائف العامة والمشاركة السياسية وتقرير المصير وغيرها من الحقوق، فبدأ اليأس يتطرق للنفوس وبدا وكأن الناس قد استسلموا له، وأن الهلاك قد أصابهم جميعا، وفوق هذا وذاك عاش واقعا ظهرت فيه مظاهر سلبية ناتجة عن الهيمنة الاستعمارية واشتغال أربابها على تسويق صورة أخرى لفرنسا، تقدمها دولة أكثر تحضرا ورقيا وتمدنا، وأهلها أكثر نبلا ونبوغا وشرفا، في مقابل تلك الصورة البائسة التي تُظهر بها الأهالي في معاشهم وعمرانهم، وهو ما تسبب في ظهور ظاهرة أخرى إلى جانب الإحباط، وهي الشعور بالدونية واستصغار الذات ومحاولة تقليد الفرنسيين والاعتزاز بما هم عليه، وفق ما قرره ابن خلدون قديما من أن 'المغلوب مولع باتباع الغالب' لذلك اشتغل ابن باديس، وهو يباشر عملية الإصلاح، على تخليص نفوس الجزائريين من هذه المشاعر المحبطة والأحكام المقلّلة من مكانتهم التاريخية والآنية باعتبارهم أصحاب حضارة ومدنية، وترسيخ قناعة جديدة يستوعبون بموجبها أن لهم هوية مستقلة ينبغي أن يعتزوا بها.

---

[51]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص69.

[52]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص70.

[53]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 70-71.

فوجد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق مبتغاه ليوظّفه في هذا السياق التاريخي فيشل به مفعول الإحباط ويجنب الجزائريين نفسية آثاره المدمرة وتبعاته السيئة، فاستخلص منه فوائد من خلال أوجه قراءة الحديث وورروده، واستنبط أحكاما تصب في هذا المصب وتنبه لخطره حتى يُتجنب، ومنها:

- على الوجه الأول–أنه إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس يعيبهم وينقصهم في أنفسهم ويحقّر من أمر جماعتهم فقد صار بذلك أعظم هلاكا منهم لارتكابه معصية كبيرة تعدّت إلى غيره وعمّتهم، وهي معصية الكبر الذي هو احتقار المرء من عداه، فهذا قد تكبر على جميع الناس، فكان عظم هلاكه على حسب عظم معصيته بهذا العموم في الكبر والاحتقار.

وعلى هذا الوجه لا يجوز الحكم على عموم الناس بالشر والفساد، على سبيل التعميم ولو كان ذلك ظاهراً بينهم فاشيا فيهم؛ لأنه حكم بدون علم، وظن سوء بمن قد يكون في غمار الناس على خلاف ما عليه أكثرهم، هذا إذا حكم حكما لمجرد الإخبار فأحرى وأولى إذا زاد على ذلك تحقيرهم[54].

- وعلى الوجه الثاني–إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس يثبطهم ويقنطهم فهو بذلك التثبيط، والتقنيط أيأسهم من رحمة الله وصدّهم عن الرجوع إليه بالتوبة، ودفعهم إلى الاستمرار فيما هم عليه من الانحراف، فأوقعهم بكلمته تلك التي جاهر بها في الهلاك: هلاك البؤس والقنوط والاندفاع في الشر.

وعلى هذا الوجه لا يجوز لمن رأى الناس في حالة سيئة أن يقنّطهم من رحمة الله وإمكان تدارك أمرهم واصلاح حالهم. هذا إذا كان يحمله على ذلك ما تعظمه من سوء حالهم في ظاهر أكثرهم، وأحرى وأولى إذا كان يحمله على ذلك قصد صدهم وتثبيطهم عن التوبة والأخذ بأسباب الإصلاح[55].

وبهذا الشرح والبيان سعى لسد أبواب مشاعر الإحباط واليأس والتيئيس، على مستوى الشعور الذاتي الفردي وعلى مستوى الشعور الجمعي، فكلاهما محظور شرعا، والمطلوب من المسلم أن يكون دائم التفاؤل حسن الظن بإخوانه المسلمين.

فيقرر إذن أن هذا الحديث النبوي مفيد لعدم الجواز –لما ذكر –لأنه سيق مساق الذم لهذا القول ووصف قائله بأنه أعظم الناس هلاكا أو أوقعُ الناس في الهلاك، وما أدى إلى أحد هذين لا يكون إلا ممنوعا محرما. ويؤيد هذا الحديث في المنع الأدلة الدالة على منع الحكم بدون علم. وظن السوء بالناس وتحقيرهم وتقنيطهم عن الخير وصدهم عنه[56].

وقد وجه ابن باديس —استنادا لهذا الحديث–أنظار المصلحين الاجتماعيين في عهده إلى ضرورة زرع الأمل في النفوس والشفقة على الأمة وتحاشي الإحباط، فلكل علة دواؤها، ولكل فساد صلاحه في العاجل أو الآجل فقال: (على مرشدي المسلمين أن يعانوا أدواءهم بالعلاجات النافعة ويشخّصوها لهم عند الحاجة بالعبارات الرقيقة المؤثرة، في رفق وهوادة مجتنبين كل ما فيه تقنيط أو تثبيط. وأن يعرفوهم بأنهم–وإن ساءت نواح من أحوالهم–فهنالك نواح ما تزال صالحة. وهنالك علاجات من الإسلام قريبة ناجعة، وأن يعرفوا ما فيهم من فضائل وما لهم من مجد، وما لهم بهذا الإسلام من قدر وعز ليثيروا فيهم النخوة ويبعثوهم على العمل والخير. وإذا ذكروا لهم سيئاتهم ذكروا لهم قرب السبيل إلى النجاة منها بالإقلاع عنها فيسرعون بالتوبة والإنابة) [57].

ثم يكشف عن عظمة هذا الحديث ومركزه في التربية الصحيحة للنفوس، فيقول: (هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفسية البشرية، فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب. وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل وترجع إلى أحط دركات السقوط. فجاء هذا الحديث الشريف يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم،

---

[54]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 77

[55]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 77-78.

[56]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 78.

[57]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 79.

وذلك يقتضي أن المطلوب هو احترامهم وتنشيطهم. وهذا الأصل العظيم الذي دل عليه هذا الحديث الشريف يحتاج إليه كل مربٍ؛ سواء أكان مربيا للصغار أم للكبار، وللأفراد أم للأمم، إذ التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس، نفوس الأفراد والجماعات وذلك ضد التربية، والاحترام والتنشيط وبعث الرجاء إحياء لها وذلك هو غرض كل مربٍ ناصح في تربيته) [58]

رابعا–حديث اتحاد المؤمنين وتعاونهم 'قيمة الرجل بقيمة قومه': عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه؛ قال: قَالَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ– (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ) رواه البخاري ومسلم.

رأينا سابقا كيف انجر عن نفسية الإحباط التي ألمت ببعض الجزائريين الشعور بالدونية واستصغار الذات أمام الآخر المستعمر؛ فوجد ابن باديس في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق مبتغاه ليوظّفه في هذا السياق التاريخي، محاولا تجنيب الجزائريين نفسية التبعية والتشبه بالآخر والاغترار بما هو عليه ظاهريا، فلم يفته توظيفه في معالجة هذا الداء الخطير كما رأينا وهو داء التبعية للاستعمار ومحاولة التشبّه به؛ فقال: (نبه على معنى عظيم في ارتباط كل فرد بأمته ارتباط الجزء بكله وهذا الارتباط يقتضي أمورا كثيرة منها ما جاء نصا في الحديث الشريف ومنها ما يؤخذ مما يقتضيه التشبيه، ومن هذا أن الفرد منظور إليه في النظر الاجتماعي العام بما ينظر به إلى أمته، سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي وانحطاط، أم كان أسمى منها أو أدنى، فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها)[59]، وهو إسقاط بديع أشعر به من يبتغي تقليد فرنسا والتشبه بها والتنكر لأمته وهويتها أن مكانته بمكانة أمته؛ عزّا أو ذلّا، تقدّما أو تأخّرا، تحضّرا أو تخلّفا؛ لأن الفرد جزء من أمته لا ينفك عنها مهما حاول التملص منها، أو بدا له أنه منفصل عنها؛ لأن العبرة بما ينعكس في مرآة الآخر عنك، والآخر لا يراك إلا من خلال صورة أمتك ومكانتها، فمهما قلدته أو تشبهت به لسانا أو لباسا أو عمرانا، أو دينا أو ثقافة، فإنك تبقى في نظره ابن أمتك وحالك هو حالها، فبدلا من تقليد الآخر فليعمل المرء على إصلاح حال أمته من خلال إصلاح نفسه وأسرته ومجتمعه، والنهوض بها حتى تتحسّن صورته في ضوء تحسّن صورة أمته، وتتغير نظرة الأمم له من خلال تغيّر النظرة لأمته، وكان هذا ضروريا من مصلح كابن باديس؛ حتى لا ينسلخ الشعب الجزائري عن هويته ويذوب في بوتقة الاستعمار، وفي هذا السياق ذاته جاءت فتواه الصارمة في تحريم تجنس الفرنسيين بالجنسية الفرنسية، بل ذهب بعيدا في فتواه حين قرر أن المتجنس مرتد وقد لا تقبل توبته[60]،!. وهي من أخطر فتاواه رحمه الله تعالى، لكن حين عرفنا السياق الذي وردت فيه أدركنا مدى أهميتها في الحفاظ على الأمة الجزائرية وسد ذريعة ذوبانها في الآخر؛ على غرار ما حدث لبعض المسلمين ببلدان مسلمة سبقت الجزائر في سقوطها في أيدي الاستعمار الصليبي، على غرار الأندلس.

وعطفا على ما سبق قصّ ابن باديس قصة تصب في هذا المصب؛ فقال: (جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوروبي، والمتأدب الأدب الإفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم، وانساق بنا الكلام إلى ما تكتسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها، واتفقنا على أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار. وأن الفرد الذي لا يحافظ على ذلك من أمته لتأخرها في سير الزمان بما أحاط بها من ظروف الحياة، وأن تحلّى بأعظم وأحسن ما يتحلى به الراقون من أمة أخرى لا ينظر إليه إلا بالعين التي ينظر بها إلى أمته. أخذ أولئك الشبان–وقد زالت عن أبصارهم غشاوة الغرور والغفلة لما أقنعتهم بأن قيمة الرجل بقيمة أمته–يقصون علي من الوقائع التي وقعت لهم هم أنفسهم ما يثبت تلك الحقيقة ويؤيدها. قلت لأولئك الأخوان– وقد اندهشت مما لم أكن

---

[58]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 80

[59]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 101

[60]- راجع نص هذه الفتوى في: ابن باديس، عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، ط1، 1405هـ/1984م، 3/308-309.

أحسبه يقع-: لا تلوموا من عاملكم بما تقتضيه نظرة اجتماعية عامة، ولكن لوموا أنفسكم إن جهلتم هذه الحقيقة، وأنتم أبناء دين قرّرها من أول أيامه في مثل الحديث الشريف الذي افتتحنا به هذا المقال. واليوم-وقد تجلت لكم الحقيقة علميا وعمليا-عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من علم وما اكتسبتم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الأمم، وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الإنسانية بإنهاض أمة عظيمة تاريخية من أممها، ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد إلى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام)[61].

خامسا-حديث نظام الغذاء: (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) .رواه الترمذي وغيره وقال حسن صحيح

لقد واجه الشعب الجزائري ككل شعوب الأرض المستعمَرة مساومات في حق دينه وهويته وأرضه وكرامته؛ فظن الاستعمار أن قصارى ما يتطلع هذا الشعب الحصول عليه هو لقمة خبز يسد بها رمقه، وأن باقي الحقوق الطبيعية والمدنية ليست ذات أولية؛ بما في ذلك حقه في حرية دينه ووطنه واستقلاله، فاستغل ابن باديس الحديث ليتصدى لهذه الظاهرة ويحافظ للجزائريين على كرامته، حيث عمد أولا إلى التنبيه على أبجديات تربى عليها المسلمون في نظام غذائه بالاقتصار على الكفاف في الطعام والشراب، والصبر على الجوع تعبدا لله تعالى أو حفظا للكرامة، وتقاسم الأكل عند الحاجة والضرورة، فقرر أننا:

- نحن-المسلمين-ربينا تربية إسلامية على إلفة الجوع، والاقتصار من الأكل على قدر الحاجة، والمواساة في المطعم والمشرب. فطعام الواحد عندنا يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الثلاثة يكفي الستة وطعام الأربعة يكفي الثمانية، وهكذا دواليك، ونعتقد عن تجربة أن الرجل لا يهلك عن نصف قوته.
- بهذه التربية استطعنا أن نبقى ونعيش في مثل ما عليه حالة معظم الأمة الجزائرية من الفاقة والجوع والمسغبة، بينما هي تنظر إلى ما ينعم فيه غيرها من الرخاء، مما لو أصاب أمة أخرى لاجتاحها وأفناها، أو لأثارها ودفعها إلى موارد العذاب والردى.
- وكما ربّانا الإسلام هذه التربية من ناحية الغذاء فقد ربّانا تربية أخرى من نواحي أخرى. فربّانا على محبة العلم والمعرفة والرغبة فيهما، والتلهّف على ما فات منهما والاحترام لمن كان له حظ فيهما[62].

ثم قرر ثانيا أنه:

- بهذه التربية استطعنا -رغم الفاقة ورغم الجوع والعوز، ورغم التثبيط والمعاكسة أن نحافظ على قرآننا وخطنا وبقايا علوم لغتنا العربية وديانتنا وجملة معارفنا، واندفعنا إلى تأسيس المكاتب العربية رغم ما يحول بينها وبيننا، واندفعنا إلى المكاتب الحكومية فضاقت عنا وبقيت مئات الآلاف في أنياب الجهل والفقر من أبنائنا.
- ولولا تلك التربية الإسلامية التي زرعتها القرون فاستقرت في قرارات النفوس، وصارت من الخلق الموروث، لكان ما نحن فيه من ظلم وتعاسة وتقديم كل أحد علينا في وطننا، والترك لمعامل التجويع والتجهيل تخرج آلاتها الفتاكة المتنوعة للقضاء علينا-لتكون شاغلا لنا عن العلم وعن الشعور به وعن طلبه وعن المزاحمة عليه[63]

ثم أكد أن السلطات الاستعمارية لم تفهم هذا الشعب ومطالبه الحقيقة، لأنها جاهلة بحقيقته وتاريخه ودينه، فقال:

---

[61]- ابن باديس، المصدر نفسه، ص 101-102.

[62]-ابن باديس، المصدر نفسه، 141-142.

[63]-ابن باديس، المصدر نفسه، 142.

- جهل قوم من ذوي السلطة هذا الخلق منا فحسبوا–وهم جد عالمين بحال الأمة وما هي فيه من جوع وفاقة–أننا قوم لا نريد إلا الخبز، وأن الخبز عندنا هو كل شيء، وأننا إذا ملئت بطوننا مهدنا ظهورنا، وأنهم إذا أعطونا الخبز فقد أعطونا كل ما نطلب.
- اذ الخبز–في زعمهم–هو أقصى ما نريد، فإذا حادثناهم في حالنا سكتوا عن كل شيء إلا عن الجوع والخبز، وإذا رفعنا أصواتنا بمطالبتهم بحقوقنا لديهم، أو بإنجاز مواعيدهم خرجت المراسيم بتوزيع قناطير القمح أو الفرينة أو الدقيق أو سلفات البذر التي لا ينال المحتاج الحقيقي منها ما يسد حاجته، وتذهب في أثناء توزيعها في تعاريج والتواءات أخرى ... فإذا صدرت تلك المراسم طبّل المطبّلون وزمّر المزمّرون، وحسب المغرورون أننا قد رضينا وفرحنا بما أعطي لنا وانتهى أمرنا. [64]

وبعد هذا البيان أفصح لهم عن المطالب الحقيقة لهذه الأمة، لتعيش سيدة في وطنها كسائر الأمم مكرّمة معزّزة، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وهي مطالب تتعدى مجرد مطالب البطن، بل إن مطالب البطن ليست لها الأولوية أمام مطالب الحرية والكرامة فقال: (يا قوم، إننا أحياء، وإننا نريد الحياة وللحياة خلقنا. وأن الحياة لا تكون بالخبز وحده، فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكلها ضروريات في الحياة. ونحن نفهم جيدا ضروريتها للحياة، وقد بذلنا فيها لكم ما كان –يوما–سببا قويا في حياتكم فلا تبخلوا علينا اليوم بما فيه حياتنا إن كنتم منصفين، وللأيام والأمم مقدرين. وإلا فالله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين)[65]

سادسا–حديث نظافة المحيط" عن أبي هريرة –رضي الله عنهما قَالَ رَسُولُ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–: (اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ) قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ). رواه مسلم.

إن المجتمع الجزائري يعيش على غرار كل الشعوب في بيئة يفترض أن تكون نظيفة، ويفترض أن يحرص الشعب على تنظيف المحيط ليبدو محيطا صحيا جميلا نظيفا، وهذا ما حث عليه الإسلام ورغبت فيه الفطر السليمة والأعراف الاجتماعية الصالحة، وجعلته المدنية من مظاهرا، فلم يكن الشعب والحال هذه في حاجة إلى من يحثه على نظافة المحيط المعيش؛ لكن واقع الشعب الجزائري مختلف عن واقع الكثير من الشعوب العربية والإسلامية؛ من حيث إنه شعب واقع تحت استعمار استيطاني وهذا ما يفرض عليه دوام التذكير ببعض الآداب الشرعية ليعطي صورة حسنة عن الإسلام والمسلمين، لاسيما وأن المستوطنين يقدمون على تنظيف المحيط سواء عن طريق مصالح البلدية أو عن طريق عموم المستوطنين، فكل مشهد يظهر الجزائريين كمقصّرين في النظافة أو مستهترين بها، سيحسب على الإسلام وعلى الأمة الجزائرية، حين يعزز النظرة السلبية للأهالي ويعطي للاستعمار ومستوطنيه حججا في ذم الجزائريين والانتقاص من تحضّرهم، ويبرر ما يدّعيه من مشروع التحضر والتمدّين الذي جاء به، لذلك بادر ابن باديس لتوظيف الحديث السابق للفت أنظار الجزائريين إلى ضرورة تنظيف محيطهم المعيش، وأن ذلك واجب شرعي قبل أن يكون مقتضى مدنيا، فبعد أن عرض معنى الحديث استخلص منه جملة فوائد وأحكام قام بإسقاطها على الواقع في هذا السياق التاريخي، منها:

- من أحسن المصالح التي يقوم عليها اجتماع الناس في التمدن الحاضر اليوم وألزمها –مصلحة التنظيف في الإدارات البلدية، وأنت ترى أن الأحاديث النبوية المتقدمة قد انتظمت ذلك التنظيف بالترهيب من التقذير وكل مؤذ، والترغيب في إزالتهما. فوضع الإسلام بذلك أصل هذه المصلحة قبل أن يعرفها تمدن اليوم في هذا العصر.
- على المسلم أن يلتزم ذلك كأمر ديني يثاب عليه عند ربه عزوجل، ليكون دافعه إلى القيام بذلك من نفسه، ورقيبه في تنفيذه ضميره الديني وإيمانه

---

[64]-ابن باديس، المصدر نفسه، 142-143.

[65]-ابن باديس، المصدر نفسه، 143.

- قد شهد التاريخ لمدن الإسلام أيام مدنيّته الزاهرة وحضارته بانفرادها بين مدن عصرها النظافة وحسن المظهر، وما ذلك إلا من تطبيق مثل ما تقدم مما وضعه الإسلام من أصول المصالح التي تقوم عليها الحياة، ويترقى بها المجتمع.
- علينا –معشر المسلمين–أن نعني بما دعتنا إليه هذه الأحاديث النبوية الشريفة لنكون بين الناس قدوة ومثلا حسنا راقيا في النظافة البلدية، لنفع أنفسنا ومجتمعنا ونرفع اسم ديننا، ونفوز بالأجر والرضى من ربنا. [66]

خاتمة:

بعد معالجة موضوع "أثر السياق الزماني والمكاني في توظيف الحديث النبوي الشريف عن ابن باديس واستثماره له" ومحاولة الإجابة عن إشكاليته الرئيسية، ومعالجة مختلف مباحثه والكشف عن السياقات الدينية والتربوية والاجتماعية التي وظّف فيه ابن باديس الأحاديث النبوية الشريفة ونزّلها على الواقع المعيش بعد تلقيها، توصلنا إلى النتائج الآتية:

1- لقد اعتنى علماء الشريعة منذ القدم بمختلف تخصصاتهم؛ لاسيما في علم الفقه وأصوله وعلم التفسير وعلوم القرآن والحديث بموضوع السياق؛ لما رأوا ما للعلم به من ضرورة لفهم النصوص الشرعية والوقوف على مراد الشارع الذي أنيط به الحكم الشرعي، من جهة، وتوسلهم به لحسن استنباط الأحكام الشرعية وتنزيلها على واقع الناس في التاريخ، ليحققوا بها مقاصد الشريعة ويسلكوا بها سبل الإصلاح الذي جاء الرسل لأدائه

2- إن السياق الذي حظي بالاهتمام الأكبر عند المتقدمين هو سياق نزول النص القرآن وورود النص النبوي؛ السياق المقامي والمقالي، لذلك بحث العلماء في أسباب النزول وأسباب الورود، والقرائن والأحوال الاجتماعية والأعراف المقترنة بصدور النص عن الشارع، ومعهود العرب في مخاطباتهم ولغاتهم، وهذا السياق يعين على الفهم والاستنباط والتقصيد، أكثر من كونه معينا على التنزيل، لكنهم لم يغفلوا الحديث عن سياق التنزيل وإن بدرجة أقل.

3- حافظ المتأخرون والمحدَثون على ما ورثوه من مدوّنة شرعية عنيت بالسياق المزامن لصدور النص الديني وميلاده؛ لكنهم وسّعوا مجال اشتغالهم إلى البحث في سياق التنزيل؛ لاسيما المصلحون منهم والمجدّدون، عبر العصور؛ لذلك رأوا أن الاجتهاد الواقع في الشريعة على نوعين: اجتهاد الفهم واجتهاد التنزيل، ويلحق بهما أنواع من النظر بجامع الفهم أو التنزيل. وإن كلا من الإجتهادين به خصاصة تلجئه إلى السياق ويستمدان من قصد الشارع.

4- دعا بعض المعاصرين إلى قراءة سياقيَّة للنصوص الشرعية ضمن السياق المعاصر، سياق الأوضاع العالمية الراهنة، بما يساعدنا في الكشف عن الغايات والمقاصد التي رسمها الله تعالى لحركة الكون والإنسان والحياة في تفاعل وجدل لا ينقطع حتى تصل البشريَّة إلى غاية حدّدها العليم الخبير. وبها نستطيع أن نلتمس سبيلنا لإعادة البناء

5- يعد الإمام عبد الحميد بن باديس أحد أكثر علماء الجزائر توظيفا للسيّاق الجزائري؛ المكاني والزماني في تنزيل النصوص الشرعية من كتاب وسنة، واستثمارا له في مشروعه الإصلاحي الذي استهدف به إحياء الدين وتجديده، وإصلاح الأمة به وتحريرها من التخلف والاحتلال الاستيطاني

6- وقفنا على ثلاثة عوامل شكلت لابن باديس سياقات تاريخية من خارج الحديث النبوي لتوظيفه عند تلقيه وقراءته له في ظلها؛ لوقاية الأمة الجزائرية من تأثيراتها وعلاجها من تداعياتها، وهي: الاستعمار الفرنسي وما بثّه في النّفوس من نفسية الانهزام التي دفعت المغلوب إلى تقليد الغالب وتمجيد حضارته، وازدراء مدنيّة أمّته أو الغفلة عنها، وانحرافات بعض الطرق

الصوفية التي بثّت أفكارا قدرية ومارست طقوسا يرى فيها ابن باديس ضربا من ضروب البدعة والشرك والسلبية المعيقة لكل إصلاح، والأمّية التي يعيشها الشعب الجزائري ذكورا وإناثا

7- وظّف الإمام ابن باديس جملة أحاديث في السياق المكاني والزماني الجزائري المعاصر له (1913م-1940م)، وأحسن استثمارها متوخيا إحياء الإسلام وتجديده، وذلك بتنقية عقيدة الجزائريين أو بعضهم مما علق بها من شوائب الشرك، وترسيخها على عقيدة التوحيد الخالص، وتنقية عباداتهم مما علق بها من شوائب البدع حتى تغدو عبادة صحيحة سالمة متقبّلة، وتزكية النفوس بحملها على الصدق، وتصحيح الكثير من التصورات والمفاهيم الخاطئة الضّالة، ومنها أحاديث: حديث الأعمال بالنيات، وحديث الحلف واليمين، وحديث قيام الساعة، وحديث بناء القبور على المساجد، وحديث الصدق والكذب.

8- وظّف الإمام ابن باديس جملة أحاديث في السياق المكاني والزماني الجزائري المعاصر له وأحسن استثمارها متوخيا بذلك إصلاح المجتمع الجزائري على المستوى النفسي والتربوي والاجتماعي والبيئي والمدني الحضاري، بالتربية والتعليم للجنسين من الذكور والإناث، تحقيقا للإصلاح الشامل بما يحافظ على هوّية الأمة الجزائرية وأصالتها، بل على وجودها وكينونتها، ويحقق لها مناعتها وتميزها بين الأمم، لاسيما تميّزها عن الأمة المستعمِرة، ويعيد لها الثقة بالنّفس ويبعث فيه الأمل ونفسية الانتصار والاعتزاز بالذات كشعور جمعي ضروري تندفع به قدما على درب الحرية والتحرر، ومحاصرة مشاعر الإحباط الفردية والجماعية، الفكرية والسياسية، وحمل الناس على تقديم صورة حضارية عن أحيائهم ومحيطهم البيئي تليق بأحكام الإسلام، ومنها: حديث تعليم النساء، وحديث تعلّم اللغات المحتاج إليها، وحديث هلاك الناس، وحديث اتحاد المؤمنين وتعاونهم 'قيمة الرجل بقيمة قومه'، وحديث نظام الغذاء، و حديث نظافة المحيط"

قائمة المصادر والمراجع

1- الأسطل، محمد قاسم، القرينة عند الأصوليين (رسالة ماجيستير)، قسم أصول الفقه، كلية الشريعة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1425هـ/2004م

2- إيكيج محمد، التقسيم الفقهي للعالم بين جدلية التضييق والتحرير لمفهوم الوطن (مقال)، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، Al-Madinah International University
https://elibrary.mediu.edu.my › MEDIU06423

3- ابن باديس، عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، ط1، 1405هـ/1984م

4- ابن باديس، عبد الحميد، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1403هـ/1983م.

5- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، وزارة الثقافة والإعلام العراقيَّة، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، بغداد، ط 1987م.

6- حميد الوافي، المعنى بين اللفظ والقصد، في الوظائف المنهجية للسياق، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: 26، شوال 1428هـ/2007م.

7- الزحيلي، محمد مصطفى، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة المؤلف، الناشر: دار الفكر – دمشق، ط1، 1427هـ/2006م.

8- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1476هـ/1957م
9- زهير بن علي، المدرسة الإصلاحية بالجزائر ودورها في تعليم البنات وإصلاح المرأة خلال النصف الأول من القرن العشرين (مقال)، مجلة المعيار، المجلد: 24 العدد: 51، السنة 2020م
10- بو سلامة، فاطمة، السياق عند الأصوليين، المصطلح والمفهوم، وحدة الإحياء، الرابطة المحمدية، https://www.arrabita.ma/blog/%D8
11- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/1997م
12- العلواني، طه جابر، دار الدعوة ودار الإجابة (مقال)، أكاديمية العلواني للدراسات القرآنية، https://alwani.org/?p=3092
13- العلواني، طه جابر، السياق: المفهوم، المنهج، النظري، (مقال)، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: 26، شوال 1428هـ/2007م
14- القادري، منير، واقع المسلمين بالغرب من أجل اجتهاد متنور لسياق متغير، (مقال) مجلة الإحياء الرابط المحمدية، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: 26، شوال 1428هـ/2007م
15- قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي، طبعة 2010م
16- لخضر لزرق، السياق وأثره في فهم الحديث النبوي (رسالة دكتوراه)، قسم الكتاب والسنة، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، 1438-1439هـ/2017-2018م.
17- المبارك، محمد بن عبد العزيز، القرائن عند الأصوليين، سلسة الرسائل الجامعية (57)، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1426هـ/2002م.
18- الميلي، مبارك بن محمد الجزائري، رسالة الشرك ومظاهره، تحقيق أبو عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر والتوزيع ط1، 1422هـ/2001م